BOBST LIBRARY
3 1142 01411 3438
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

دمعة وابتسامة

7157 JABRAN Larme et sourire, Beyrouth. 1974
Gibran, Kahlil.
"3

جبران خليل جبران

/Damʿah wa-ibtisāmah/

دمعة وابتسامة

PJ
7826
.I2
D3
1950x
c.1

الى

M. E. H.

اقدم هذا الكتاب وهو اول نسمة عاصفة من حياتي ،
الى الروح النبيلة التي تحب النسمات وتسير مع العواصف

جبران

MAY 16 1985

دمعة وابتسامة

توطئة

أنا لا أبدل أحزان قلبي بأفراح الناس، ولا أرضى أن تنقلب الدموع التي تستدرها الكآبة من جوارحي وتصير ضحكاً. أتمنى أن تبقى حياتي دمعة وابتسامة: دمعة تطهر قلبي وتفهمني أسرار الحياة وغوامضها، وابتسامة تدنيني من ابناء بجدتي وتكون رمز تمجيدي الآلهة. دمعة أشارك بها منسحقي القلب، وابتسامة تكون عنوان فرحي بوجودي.

أريد أن أموت شوقاً ولا أحيا مللاً. أريد أن تكون في أعماق نفسي مجاعة للحب والجمال لأني نظرت فرأيت المستكفين أشقى الناس وأقربهم من المادة، وأصغيت فسمعت تنهدات المشتاق المتمني أعذب من رنات المثاني والمثالث.

يأتي المساء فتضم الزهرة أوراقها وتنام معانقة شوقها، وعندما يأتي الصباح تفتح شفتيها لاقتبال قبلة الشمس، فحياة الأزهار شوق ووصال، دمعة وابتسامة.

تتبخر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير غيمة وتسير فوق التلال والأودية حتى إذا ما لاقت نسيمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول وانضمت الى الجداول ورجعت الى البحر موطنها. حياة الغيوم فراق ولقاء، دمعة وابتسامة. كذا النفس تنفصل عن الروح العام وتسير في عالم المادة وتمر كغيمة فوق جبال الأحزان وسهول الأفراح فتلتقي بنسيمات الموت فترجع الى حيث كانت: الى بحر المحبة والجمال، الى الله...

حياة الحب

الربيع

هلمي يا محبوبتي نمشِ بين الطلول ، فقد ذابت الثلوج ، وهبت الحياة من مراقدها وتمايلت في الأودية والمنحدرات. سيري معي لنتتبع آثار أقدام الربيع في الحقل البعيد . تعالي لنصعد الى أعـــالي الربى ونتأمل تموجات اخضرار السهول حولها .

ها قد نشر فجر الربيع ثوباً طواه ليل الشتاء فاكتست به أشجار الخوخ والتفاح فظهرت كالعرائس في ليلة القدر ، واستيقظت الكروم وتعانقت قضبانها كمعاشر العشاق ، وجرت الجداول راقصة بين الصخور مرددة أغنية الفرح ، وانبثقت الأزهار من قلب الطبيعة انبثاق الزبد من البحر .

تعالي لنشرب بقايا دموع المطر من كؤوس النرجس ونملأ نفسينا بأغـــاني العصافير المسرورة ونغتنم استنشاق عطر النسيمات .

لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبىء البنفسج ونتبادل قبلات المحبة .

الصيف

هيا بنا الى الحقل يا حبيبتي فقد جاءت ايام الحصاد وبلغ الزرع مبلغه وأنضجته حرارة محبة الشمس للطبيعة . تعالي قبل أن تسبقنا الطيور فتستغل أتعابنا ، وجماعة النمل فتأخذ أرضنا . هلمي نجنِ ثمار الأرض مثلما جنت النفس حبوب السعادة من بذور الوفاء التي زرعتها المحبة في أعماق قلبينا ، ونملأ المخازن من نتاج العناصر كما ملأت الحياة أهراء عواطفنا .

هلمي يا رفيقتي نفترش الأعشاب ونلتحف السماء ونوسد رأسينا بضغث من القش الناعم فنرتاح من عمل النهار ونسمع مسامرة غدير الوادي .

الخريف

لنذهب الى الكرمة يا محبوبتي ونعصر العنب ونوعه في الاجران مثلما تعي النفس حكمة الأجيال ونجمع الأثمار اليابسة ونستقطر الأزهار ونستعض عن العين بالاثر .

لنرجع نحو المساكن فقد اصفرّت أوراق الأشجار ونثرها الهواء كأنه يريد ان يكفن بها ازهاراً قضت لوعة عندما ودعها الصيف . تعالي فقد رحلت الطيور نحو الساحل وحملت معها انس الرياض وخلفت الوحشة للياسمين والسيسبان فبكى باقي الدموع على اديم التراب .

لنرجع ! فالجداول قد وقفت عن مسيرها ، والعيون نشفت دموع فرحها ، والطلول خلعت باهي أثوابها . تعالي يا محبوبتي ، فالطبيعة قد راودها النعاس فأمست تودع اليقظة باغنية نهاوندية مؤثرة .

الشتاء

اقتربي يا شريكة حياتي ، اقتربي مني ولا تدعي أنفاس الثلوج تفصل جسمينا . اجلسي بجانبي أمـام هذا الموقد ، فالنار فاكهة الشتاء الشهية . حدثيني بآتي الاجيال ، فأذناي قد تعبتا من تأوه الرياح وندب العناصر . اوصدي الأبواب والنوافذ ، فمرأى وجه الجو الغضوب يحزن نفسي ، والنظر الى المدينة الجالسة كالثكلى تحت أطباق الثلوج يدمي قلبي... اسقي السراج زيتاً ، يا رفيقة عمري ، فقد اوشك ان ينطفىء ، وضعيه بالقرب منك لأرى ما كتبته الليالي على وجهك... تي بجرة الخمر لنشرب ونذكر أيام العصر .

اقتربي ! اقتربي مني يا حبيبة نفسي ، فقد خمدت النار وكاد الرماد يخفيها ... ضميني ، فقد انطفأ السراج وتغلبت عليه الظلمة ... ها قـــد اثقلت أعيننا خمرة السنين ... ارمقيني بعين كحلها النعاس ... عانقيني قبل ان يعانقني الكرى... قبليني فالثلج قد تغلب على كل شيء الا قبلتك... آه يا حبيبتي ما أعمق بحر النوم ! آه ما أبعد الصباح... في هذا العالم !

حكاية

على ضفة ذلك النهر ، في ظل أشجار الجوز والصفصاف، جلس ابن زرّاع يتأمل المياه الجارية بسكينة وهدوء . فتى ربي بين الحقول حيث يتكلم كل شيء عن الحب . حيث الأغصان تتعانق ، والأزهار تتمايل ، والطيور تتشبب . حيث الطبيعة بأسرها تكرز بالروح . ابن عشرين رأى بالأمس على الينبوع صبية جالسة بين الصبايا فأحبها ثم علم انها ابنة الامير فلام قلبه وشكا نفسه الى نفسه ، لكن الملامة لا تميل بالقلب عن الحب ، والعذل لا يصرف النفس عن الحقيقة ، والإنسان بين قلبه ونفسه كغصن لين في مهب ريح الجنوب وريح الشمال .

نظر الفتى فرأى زهرة البنفسج قد نبتت بقرب زهرة الأقحوان ، ثم سمع الهزار يناجي الشحرور ، فبكى لوحدته وانفراده ، ثم مرت ساعات حبه أمام عينيه مرور الاشباح فقال وعواطفه تسيل مع كلماته ودموعه :

– هوذا الحب يستهزىء بي . هـا قد جعلني سخرية وقادني الى حيث الآمال تعد عيوباً والاماني مذلة . الحب

الذي عبدته قد رفع قلبي الى قصر الامير وخفض منزلتي الى كوخ الزراع وسار بنفسي الى جمال حورية تحيط بها الرجال ويحميها الشرف الرفيع ... انا طائع أيها الحب فماذا تريد ؟ قد اتبعتك على سبل نارية فلذعني اللهيب . قد فتحت عيني فلم أرَ غير الظلمة ، وأطلقت لساني فلم أتكلم بغير الأسى . قد عانقني الشوق أيها الحب بمجاعة روحية لن تزول بغير قبل الحبيب . انا ضعيف أيها الحب فلمَ تخاصمني وأنت القوي ؟ لماذا تظلمني وأنت العـــادل وأنا البريء ؟ لماذا تذلني ولم يكن غيرك ناصري ؟ لماذا تتخلى عني وأنت موجدي ؟ إن جرى دمي بغير مشيئتك فاهرقه ، وإن تحركت قدماي على غير طرقك فشلها . افعل مشيئتك بهذا الجسد وخلِّ نفسي تفرح بهذه الحقول المستأمنة بظل جناحيك ... الجداول تسير الى حبيبها البحر ، والأزهار تبتسم لعشيقها النور ، والغيوم تهبط نحو مريدها الوادي ، وانا وبي ما لا تعرفه الجداول ولا تسمع به الأزهار ولا تدركه الغيوم قد رأيتني وحيداً في محنتي منفرداً في غرامي بعيداً عن التي لا تريدني جنديّاً في كتائب أبيهـــا ، ولا ترضاني خادماً في قصرها .

وسكت الفتى هنيهة كأنه يريد أن يتعلم الكلام من خرير النهر وحفيف أوراق الغصون ، ثم عاد فقال :

ـ وأنت يا من أخاف من اسمها أن أدعوهـا باسمها ،

أيتها المحجوبة عني بستائر العظمة وجدران الجلال ، ايتها الحورية التي لا أطمع بلقائها الا في الأبدية حيث المساواة ، يا من تطيعها الصوارم وتنحني أمامها الرقاب وتنفتح لها الخزائن والمساجد، قد ملكت قلباً قدسه الحب واستعبدت نفساً شرّفها الله وخلبت عقلاً كان بالأمس حرّاً بحرية هذه الحقول فصار اليوم اسيراً بقيود هذا الغرام . رأيتك ايتها الجميلة فعرفت سبب مجيئي الى هذا العالم ، ولما عرفت رفعة منزلتك ونظرت الى حقارتي علمت ان للآلهة اسراراً لا يعرفها الإنسان ، وسبلاً تذهب بالأرواح الى حيث المحبة تقضي بغير الشرائع البشرية . ايقنت لما نظرت الى عينيك ان هذه الحياة فردوس بابه القلب البشري ، ولما رأيت شرفك وذلي يتصارعان صراع مارد ورئبال علمت ان هذه الأرض لم تعد وطناً لي . ظننت لما وجدتك جالسة بين نسائك ، كالوردة بين الرياحين ، ان عروس أحلامي قد تجسدت وصارت بشراً مثلي ، ولما تخبرت مجد أبيك وجدت ان دون اجتناء الورد أشواكاً تدمي الاصابع ، وان ما تجمعه الاحلام تفرقه اليقظة ...

وقام اذ ذاك ومشى نحو الينبوع منخفض الجناح ، كسير القلب ، مجسماً الاسى والقنوط بهذه الكلمات :

— تعال يا موت وانقذني ، فالارض التي تخنق أشواكها أزهارها لا تصلح للسكن . هلم وخلصني من أيام تخلع الحب

عن كرسي مجده وتقيم الشرف العالي مكانه . خلصني يا موت فالابدية أجدر بلقاء المحبين من هذا العالم . هناك يا موت انتظر حبيبتي وهناك اجتمع بها .

بلغ الينبوع وقد جاء المساء وأخذت الشمس تلم وشاحها الذهبي عن الحقـــل ، فجلس يذرف الدموع على حضيض وطئته قدما ابنة الامير وقد حنى رأسه على صدره كأنه يمنع قلبه من الخروج .

في تلك الدقيقة ظهرت من وراء أشجـــار الصفصاف صبية تجر اذيالها على الاعشاب ، ووقفت بجانب الفتى ووضعت يدها الحريرية على رأسه ، فنظر اليها نظرة نائم أيقظه شعاع الشمس ، فرأى ابنة الامير واقفة حذاءه فجثا على ركبتيه مثلما فعل موسى عندما رأى العليقة مشتعلة أمامه ، ولما أراد الكلام أرتج عليـــه فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه .

ثم عانقته الصبية وقبلت شفتيه ، وقبلت عينيه راشفة المدامع السخينة ، وقالت بصوت ألطف من نغمة الناي :

ـ قد رأيتك يا حبيبي في أحلامي ونظرت وجهك في وحدتي وانقطاعي ، فأنت رفيق نفسي الذي فقدته ونصفي الجميل الذي انفصلت عنه عندما حكم عليَّ بالمجيء الى هذا

العالم . قد جئت سرّاً يا حبيبي لالتقيك وها أنت الآن بين ذراعي ، فلا تجزع ! قد تركت مجد والدي لاتبعك الى اقاصي الارض وأشرب معك كأس الحيـــاة والموت . قم يا حبيبي فنذهب الى البرية البعيدة عن الانسان .

ومشى الحبيبان بين الاشجار تخفيها ستائر الليل ولا يخفيها بطش الامير ولا أشباح الظلمة .

هناك في أطراف البلاد عثر رواد الامير على هيكلين بشريين في عنق أحدهما قلادة ذهبية وبقربها حجر كتبت عليه هذه الكلمات :

قد جمعنا الحب فمن يفرقنا ، وأخذنا الموت فمن يرجعنا؟

في مدينة الأموات

تملصت بالامس من غوغاء المدينة وخرجت أمشي في الحقول الساكنة حتى بلغت اكمة عالية ألبستها الطبيعة أجمل حلاها ، فوقفت وقد بانت المدينة بكل ما فيها من البنايات الشاهقة والقصور الفخمة تحت غيمة كثيفة من دخان المعامل .

جلست أتأمل عن بعد بأعمال الانسان فوجدت أكثرها عناء ، فحاولت في قلبي الا افكر بما صنعه ابن آدم وحوّلت عينيّ نحو الحقل كرسي مجد الله فرأيت في وسطه مقبرة ظهرت فيها الاجداث الرخامية المحاطة بأشجار السرو .

هناك بين مدينة الاحياء ومدينة الاموات جلست افكر افكر في كيفية العراك المستمر والحركة الدائمة في هذه ، وفي السكينة السائدة والهدوء المستقر في تلك . من الجهة الواحدة آمال وقنوط . ومحبة وبغضة ، وغنى وفقر ، واعتقاد وجحود ، ومن الاخرى تراب في تراب تقلب الطبيعة بطنه ظاهراً وتبدع منه نباتاً ثم حيواناً ، وكل ذلك يتم في سكينة الليل .

بينا أنا مستسلم لعوامل هذه التأملات استلفت ناظري جمع غفير يسير الهوينا، تتقدمه الموسيقى وتملأ الجوّ ألحاناً محزنـــة . موكب جمع بين الفخامة والعظمة وآلف بين أشكال الناس . جنازة غني قوي . رفات ميت يتبعه الاحياء وهم يبكون ويولولون ويبثون بالهواء الصراخ والعويل .

بلغوا الجبانة فاجتمع الكهان يصلون ويبخرون ، وانفرد الموسيقيون ينفخون الابواق . وبعد قليل انبرى الخطبـاء فأبنوا الراحل بمنتقيات الكلام ، ثم الشعراء فرثوه بمنتخبات المعاني ، كل ذلك كان يتم بتطويل ممل . وبعد قليل انقشع الجمع عن جدث تسابق في صنعه الحفارون والمهندسون وحوله أكاليل الازهار المنمقة بأيدي المتفننين .

رجع الموكب نحو المدينة وأنا أنظر من بعيد وأفكر .

ومالت الشمس نحو الغروب واستطالت أخيلة الصخور والاشجار وأخذت الطبيعة تخلع أثواب النور .

في تلك الدقيقة نظرت فرأيت رجلين يقـــلان تابوتاً خشبياً ووراءهما امرأة ترتدي اطماراً بالية وهي حاملة على منكبيها طفلاً رضيعاً ويجانبها كلب ينظر اليها تارة والى التابوت أخرى . جنازة فقير حقير ، وراءها زوجة تذرف دموع الاسى وطفل يبكي لبكاء أمه وكلب أمين يسير وفي مسيره حزن وكآبة .

وصل هؤلاء الى المقبرة واودعوا التابوت حفرة في زاوية بعيدة عن الاجداث الرخامية ثم رجعوا بسكينة مؤثرة والكلب يتلفت نحو محط رحال رفيقه حتى اختفوا عن بصري وراء الأشجار .

فالتفتُّ إذ ذاك نحو مدينة الأحياء وقلت في نفسي : تلك للأغنيـــاء الأقوياء . ثم نحو مدينة الأموات وقلت : هذه للأغنياء الأقوياء . فأين موطن الفقير الضعيف يا رب ؟

قلت هذا ونظرت نحو الغيوم المتلبدة المتلونة أطرافها بذهب من أشعة الشمس الجميلة ، وسمعت صوتاً من داخلي يقول : هناك .

موت الشاعر حياته

خيم الليل يجنحه فوق المدينة وألبسها الثلج ثوباً وهزم البرد ابن آدم من الأسواق فاختبأ في أوكاره . وقامت الرياح تتأوّه بين المساكن كمؤبن وقف بين القبور الرخامية يرثي فريسة الموت .

وكان في أطراف الاحياء بيتٌ حقير تداعت أركانه وأثقلته الثلوج حتى أوشك ان يسقط ، وفي احدى زوايا ذلك البيت فراش بالٍ عليه محتضر ينظر إلى سراج ضعيف يغالب الظلمة فتغلبه . فتى في ربيع العمر قد علم بقرب أجل انعتاقه من قيود الحياة فصار ينتظر المنيّة وعلى وجهه المصفر نور الأمل وعلى شفتيه ابتسامة محزنة . شاعر جاء ليفرح قلب الانسان بأقواله الجميلة يموت جوعاً في مدينة الأحياء الأغنياء . نفس شريفة هبطت مع نعم الآلهة لتجعل الحياة عذبة تودّع دنيانا قبل ان تبتسم لها الانسانية . منازع يلفظ أنفاسه الأخيرة وليس بقربه سوى سراج كان رفيق وحدته وأوراق عليها أخيلة روحه اللطيفة .

جمع ذلك الفتى المنازع بقايا قوة قاربت الفناء ورفع

يديه نحو العلاء وحرّك أجفانه الذابلة كأنه يريد ان يخرق بنظراته الأخيرة سقف ذلك الكوخ البالي ليرى النجوم من وراء الغيوم ، ثم قال :

تعالي ايتها المنية الجميلة فقد اشتاقتك نفسي . اقتربي وحلي قيود المادة فقد تعبت من جرّها . تعالي إليّ يا ايتها المنية الحلوة وانقذيني من بين البشر الذين يحسبونني غريباً عنهم لأني اترجم ما اسمعه من الملائكة إلى لغة البشر . اسرعي نحوي فقد تخلى عني الانسان وطرحني في زوايا النسيان لأني لم أكن طامعاً بالمال نظيره ولا باستخدام من هو أضعف مني . تعالي اليّ أيتها المنية العذبة وخذيني فأولاد بجدتي لا يحتاجون اليّ . ضميني الى صدرك المملوء محبة . قبلي شفتي التي لم تذق طعم قبلة الوالدة ولا لمست وجنة الأخت ولا لثمت ثغر المحبوبة . اسرعي وعانقيني يا حبيبتي المنية .

انتصب اذ ذاك بجانب فراش المنازع طيف امرأة ذات جمال غير بشري ترتدي ثوباً ناصعاً كالثلج وتحمل بيدها اكليل زنابق من نبت الحقول العلوية ، ثم دنت منه وعانقته واغمضت عينيه كي يراها بعين نفسه ، وقبلت شفتيه قبلة محبة ، قبلة تركت على شفتيه ابتسامة اكتفاء .

في تلك الدقيقة أصبح ذلك البيت خالياً الا من التراب وبعض أوراق منثورة في زوايا الظلمة .

مرت الأجيـــال وسكان تلك المدينة غرقى في سبات الجحود والاهمال ، ولما استفاقوا ورأت عيونهم فجر المعرفة أقاموا لذلك الشاعر تمثالاً عظيماً في وسط الساحة العمومية وعيّدوا له في كل عام عيداً ... آه ما أجهل الانسان !

بنات البحر

في أعماق البحر الذي يحيط بالجزائر القريبة من مطلع الشمس – هنالك في الاعماق حيث الدر الكثير جثة فتى هامدة بقربها بنات البحر وذات الشعور الذهبية قد جلسن بين نبات المرجان ينظرن اليها بعيونهن الزرقاء الجميلة ويتحدثن باصوات موسيقية ، حديثاً سمعته اللجة فحملته الامواج الى الشواطىء فجاء به النسيم الى نفسي .

وقالت واحدة :

هذا بشريّ هبط بالامس اذ كان البحر حانقاً .

فقالت الثانية :

لم يكن البحر حانقاً ولكن الإنسان – وهو الذي يدّعي بانه من سلالة الآلهة – كان في حرب حامية أهرقت فيها الدماء حتى صار لون الماء قرمزيّاً . وهذا البشري هو قتيل الحرب .

فقالت الثالثة :

لا أدري ما هي الحرب ولكني اعلم ان الانسان بعد ان تغلب على اليابسة طمع بالسيادة على البحر فابتدع

الآلات الغريبة ومخر العبـاب ، فدرى نبتون اله البحار وغضب من هذا التعدي ، فلم يرَ الانسان بدّاً اذ ذاك من ارضاء مليكنا بالذبائح والهدايا . فالاشلاء التي رأيناها بالامس هابطة ، هي آخر تقدمة من الانسان الى نبتون العظيم .

فقالت الرابعة :

ما أعظم نبتون ولكن ما اقسى قلبه ! لو كنت انا سلطانة البحار لما رضيت بالذبائح الدموية . تعالي لنرى جثة هـذا الشاب فربما أفادتنا شيئاً عن طائفة البشر .

اقتربت بنات البحر من جثمان الشاب وبحثن في جيوب أثوابه فعثرن على رسالة في الثوب الملاصق قلبه ، فأخذت الرسالة واحدة منهنّ وقرأت :

يا حبيبي ! ها قد انتصف الليل وانا ساهرة وليس لي مسلٍّ غير دموعي . ولا معزٍّ سوى أملي برجوعك اليَّ من بين مخالب الحرب ، ولا أقدر أن افكر الا بمـا قلته لي عند الوداع بأن عند كل انسان أمانة من الدمع لا بدَّ من ردّها يوماً ... لا أدري يا حبيبي ماذا اكتب بل أترك نفسي تسيل على الورق . نفس يعذبها الشقاء ويعزيها الحب الذي يجعل الالم لذة والاحزان مسرّة ... لما وحد الحب قلبينا وصرنا نتوقع ضم جسمين تجول فيهما روح واحدة ،

نادتك الحرب فاتبعتها مدفوعاً بعوامل الواجب والوطنية . مـــا هذا الواجب الذي يفرق المحبين ويرمل النساء ويتيم الاطفال ؟ ما هذه الوطنية التي من أجل اسباب صغيرة تدعو الحرب لتخريب البلاد ؟ ما هذا الواجب المحتوم على القروي المسكين والذي لا يحفل به القوي وابن الشرف الموروث ؟ اذا كان الواجب ينفي السلم من بين الأمم ، والوطنية تزعج سكينة حياة الانسان ، فسلام على الواجب والوطنية ... لا ، لا يا حبيبي لا تحفل بكلامي بل كن شجاعاً ومحباً لوطنك ولا تسمع كلام ابنة أعمـــاها الحب واضاع بصيرتها الفراق ... اذا كان الحب لا يرجعك اليَّ في هذه الحياة فالحب يضمني اليك في الحياة الآتية .

وضعت بنات البحر تلك الرسالة تحت اثواب الشاب وسبحن بسكينة محزنة ، ولما بعدن قالت واحدة منهن .

انَّ قلب الانسان اقسى من قلب نبتون .

النّفس

... وفصل اله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً.

واعطاها رقة نسيمات السَّحَر وعطر ازاهر الحقل ولطف نور القمر.

ووهبها كأس سرور وقال : لن تشربي منها الا اذا نسيتِ الماضي واهملتِ الآتي. وكأس حزن وقال : تشربين منها فتدركين كنه فرح الحياة.

وبث فيها محبة تفارقها مع اول تنهدةِ استكفاء وحلاوة تخرج منها مع اول كلمة ترفُّع.

واسقط عليها علماً من السماء ليرشدها الى سبل الحق.

ووضع في اعماقها بصيرة ترى ما لا يُرى.

وابتدع فيها عاطفة تسيل مع الاخيلة وتسير مع الاشباح.

وألبسها ثوب شوق حاكته الملائكة من تموجات قوس قزح.

ثم وضع فيها ظلمة الحيرة وهي خيال النور.

وأخذ الإله ناراً من مصهر الغضب ، وريحاً تهب من صحراء الجهل ، ورملاً من عـــلى شاطىء بحر الانانية ، وتراباً من تحت اقدام الدهور وجبل الانسان .

واعطاه قوة عمياء تثور عند الجنون وتخمد امام الشهوات.

ثم وضع فيه الحياة وهي خيال الموت .

وابتسم اله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لا حد لها ولا مدى وجمع بين الانسان ونفسه .

ابتسامة ودمعة

لمت الشمس أذيالها عن تلك الحدائق الناضرة وطلع القمر من وراء الأفق وسكب عليها نوراً لطيفاً وأنا جالس هنالك تحت الأشجار أتأمل انقلاب الجو من حالة الى حالة وانظر من خلال الأغصان الى النجوم المنثورة كالدراهم على بساط أزرق وأسمع من بعيد خرير جداول الوادي .

ولما استأمنت الطيور بين القضبان المورقة وأغمضت الأزهار عيونها وسادت السكينة سمعت وقع أقدام خفيفة على الأعشاب ، فحولت نظري واذا بفتى وفتاة يقتربان مني ، ثم جلسا تحت شجرة غضة وأنا أراهما ولا أرى .

وبُعيد أن تلفت الفتى الى كل ناحية سمعته يقول : اجلسي بجانبي يا حبيبتي واسمعيني . ابتسمي لأن ابتسامتك هي رمز مستقبلنا ، وافرحي لأن الايام قد فرحت من أجلنا . حدثتني نفسي بالشك الذي يخامر قلبك والشك في الحب إثم يا حبيبتي . عن قريب تصيرين سيدة هذه الاملاك الواسعة التي ينيرها ذلك القمر الفضي ، وربة هذا القصر المضاهي قصور الملوك ، تجرك خيولي المطهمة في المتنزهات وتذهب بك

مركباتي الجميلة الى المراقص والملاهي . ابتسمي يا حبيبتي كما يبتسم الذهب في خزائني ، وارمقيني كما ترمقني جواهر والدي اسمعي يا حبيبتي فقد أبى قلبي الا أن يسكب أمامك مخبآته . أمامنا سنة العسل . سنة نصرفها مع الذهب الكثير على شواطىء بحيرات سويسرا وفي متنزهات ايطاليا وقرب قصور النيل وتحت أغصان أرز لبنان . سوف تلتقين الأميرات والسيدات فيحسدنك على حلاك وملابسك . كل ذلك لك مني . فهلا رضيت ؟ آه ما أحلى ابتسامك !. ابتسامك يحاكي ابتسام دهري .

وبعد قليل رأيتها يمشيان على مهل ويدوسان الأزهار بأقدامها كما تدوس قدم الغني قلب الفقير .

غابا عن بصري وأنا أفكر بمنزلة المال عند الحب . افكر بالمال مصدر شرور الإنسان وبالحب منبع السعادة والنور .

ظللت تائهاً في مسارح هذه الأفكار حتى لمحت شبحين مرّا من أمامي وجلسا على الاعشاب . فتى وفتاة أتيا من جهة الحقول حيث أكواخ الفلاحين في المزارع . وبعد هنيهة من سكينة مؤثرة سمعت هذا الكلام صادراً مع تنهدات عميقة من فم مصدور : كفكفي الدمع يا حبيبتي . ان المحبة التي شاءت ففتحت اعيننا وجعلتنا من عبادها تهبنا نعمة الصبر والتجلد . كفكفي الدمع وتعزي لأننا تحالفنا على

دين الحب ، ومن أجل الحب العذب نحتمل عذاب الفقر ومرارة الشقاء وتباريح الفراق ، ولا بد لي من مصارعة الأيام حتى أظفر بغنيمة تليق بأن اضعها بين يديك تساعدنا على قطع مراحل العمر . انّ المحبة يا حبيبتي ، وهي الله ، تقتبل منا هذه التنهدات وهذه الدموع كبخور عاطر ، وهي تكافئنا عليها بقدر ما نستحق . اودّعك يا حبيبتي فأنا راحل قبل ان يغيب القمر .

ثم سمعت صوتاً رقيقاً تقاطعه زفرات أنفاس ملتهبة ، صوت عذراء لطيفة أودعته كل ما في جوارحها من حرارة الحب ومرارة التفرق وحلاوة التجلد تقول : الوداع يا حبيبي .

ثم افترقا وأنا جالس تحت أغصان تلك الشجرة تتجاذبني أيدي الشفقة وتتساهمني أسرار هذا الكون الغريب .

ونظرت تلك الساعة نحو الطبيعة الراقدة وتأملت مليّاً فوجدت فيها شيئاً لا حد له ولا نهاية . شيئاً لا يشترى بالمال . وجدت شيئاً لا تمحوه دموع الخريف ولا يميته حزن الشتاء . شيئاً لا توجده بحيرات سويسرا ولا منتزهات ايطاليا . وجدت شيئاً يتجلد فيحيا في الربيع ويثمر في الصيف . وجدت فيها المحبة .

رؤيا

هناك في وسط الحقل على ضفة جدول بلوري رأيت قفصاً حبكت ضلوعه يد ماهرة . وفي احدى زوايا القفص عصفور ميت وفي زاوية اخرى جرن جف ماؤه وجرن نفدت بذوره .

فوقفت وقد امتلكتني السكينة وأصغيت صاغراً كأن في الطائر الميت وصوت الجدول عظة تستنطق الضمير وتستفسر القلب . وتأملت فعلمت أن ذلك العصفور الحقير قد صارع الموت عطشاً وهو بجانب مجاري المياه ، وغالبه جوعاً وهو في وسط الحقول التي هي مهد الحياة كمغني اقفلت عليه أبواب خزائنه فمات جوعاً بين الذهب .

وبعد هنيهة رأيت القفص قد انقلب فجأة وصار هيكل انسان شفافاً ، وتحول الطائر الميت الى قلب بشري فيه جرح عميق يقطر دماً قرمزيّاً وقد حاكت جوانب الجرح شفتي امرأة حزينة .

ثم سمعت صوتاً خارجاً من الجرح مع قطرات الدماء قائلاً : أنا هو القلب البشري أسير المادة وقتيل شرائع

الإنسان الترابي . في وسط حقل الجمال ، على ضفة ينابيع الحياة أُسرت في قفص الشرائع التي سنها الإنسان للشواعر . على مهد محاسن المخلوقات بين أيدي المحبة متُّ مهملاً ، لأنَّ ثمار تلك المحاسن ونتاج هذه المحبة قد حُرِّما عليَّ . كل ما يشوقني صار بعرف الإنسان عاراً ، وجميع مـــا أشتهيه أصبح في قضائه مذلة .

انا القلب البشري قـد حُبست في ظلمة سنن الجامعة فضعفت ، وقيدت بسلاسل الأوهام فاحتضرت ، وأُهملت في زوايا غي المدينة فقضيت ولسان الإنسانية منعقد وعيونها ناشفة وهي تبتسم .

سمعت هذه الكلمات ورأيتها خارجة مع قطرات الدم من ذلك القلب الجريح ، وبعد ذلك لم أعد أرى شيئاً ولم أسمع صوتاً فرجعت الى حقيقتي .

الجمال ١

ان الجمال دين الحكماء
شاعر هندي

يا أيها الذين حاروا في سبيل الأديان المتشعبة وهاموا في أودية الاعتقادات المتباينة فرأوا حرية الجحود أوفى من قيود التسليم ، ومسارح النكران أسلم من معاقل الاتباع ، اتخذوا الجمال ديناً واتقوه ربّاً ، فهو الظاهر في كمال المخلوقات البادي في نتائج المعقولات . انبذوا الأُلى مثلوا التدين لهواً وآلفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل وآمنوا بألوهية جمال كان بدء استحسانكم الحياة ومنبع محبتكم السعادة ثم توبوا اليه فهو المقرّب قلوبكم من عرش المرأة مرآة شعائركم والمدرب انفسكم في مجال الطبيعة موطن حياتكم .

ويا ايها الذين ضاعوا في ليل التقولات وغرقوا في لجج الأوهام ، ان في الجمال حقيقة نافية الريب ، مانعة الشك ، ونوراً باهراً يقيكم ظلمة البُطل . تأملوا يقظة الربيع ومجيء الصبح ، ان الجمال نصيب المتأملين .

اصغوا لأنغـــام الطيور ، وحفيف الاغصان ، وخرير الجدول ، ان الجمال قسمة السامعين . انظروا وداعة الطفل ، وظرف الشاب ، وقوة الكهل ، وحكمـــة الشيخ ، انّ الجمال فتنة الناظرين .

تشببوا بنرجس العيون ، وورد الخدود ، وشقيق الفم ، انّ الجمال يتمجد بالمتشببين . سبحوا لغصن القد ، وليـل الشعر ، وعاج العنق ، انّ الجمال يسرّ بالمسبحين . كرسوا الجسد هيكلاً للحسن وقدسوا القلب مذبحاً للحب ، ان الجمال يجازي المتعبدين .

تهللوا يا أيها الذين أنزلت عليهم آيات الجمال وافرحوا اذ لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

الحروف النارية

احفروا على لوح قبري :
« هنا رفات من كتب اسمه بماء »
جان كيتس

أهكذا تمر بنا الليالي ؟ أهكذا تندثر تحت أقدام الدهر ؟ أهكذا تطوينا الأجيال ، ولا تحفظ لنا سوى اسم تخطه على صحفها بماء بدلاً من المداد ؟

أينطفىء هذا النور ، وتزول هذه المحبة ، وتضمحل هذه الأماني ؟ أيهدم الموت كل ما نبنيه ، ويذري الهواء كل ما نقوله ، ويخفي الظل كل ما نفعله ؟

أهذه هي الحياة ؟ هل هي ماضٍ قد زال واختفت آثاره ، وحاضر يركض لاحقاً بالماضي ، ومستقبل لا معنى له إلا إذا ما مرَّ وصار حاضراً او ماضياً ؟

أتزول جميع مسرات قلوبنا وأحزان أنفسنا دون أن نعلم نتائجها ؟

أهكذا يكون الانسان مثل زبد البحر يطفو دقيقة على وجه الماء ثم تمر نسيمات الهواء فتطفئه ويصبح كأنه لم يكن ؟

لا لعمري ، فحقيقة الحياة حياة . حياة لم يكن ابتداؤها في الرحم ولن يكون منتهاها في اللحد . وما هذه السنوات إلا لحظة من حياة أزلية أبدية . هذا العمر الدنيوي مع كل ما فيه هو حلم بجانب اليقظة التي ندعوها الموت المخيف . حلم ولكن كل ما رأيناه وفعلناه فيه يبقى ببقاء الله .

فالأثير يحمل كل ابتسامة وكل تنهدة تصعد من قلوبنا ، ويحفظ صدى كل قبلة مصدرها المحبة . والملائكة تحصي كل دمعة يقطرها الحزن من مآقينا ، وتعيد على مسمع الأرواح السابحة في فضاء اللانهاية كل أنشودة بتدعها الفرح من شواعرنا .

هناك في العـــالم الآتي سنرى جميع تموجات شواعرنا واهتزازات قلوبنا ، وهناك ندرك كنه ألوهيتنا التي نحتقرها الآن مدفوعين بعوامل القنوط .

الضلال الذي ندعوه اليوم ضعفاً سيظهر في الغد كحلقة كيانها واجب لتكملة سلسلة حياة ابن آدم .

الأتعاب التي لا نكافأ عليها الآن ستحيا معنا وتذيع مجدنا .

الأرزاء التي نحتملها ستكون إكليلاً لفخرنا .

هذا ولو علم «كيتس» ذلك البلبل الصداح ان أناشيده لم تزل تبث روح محبة الجمال في قلوب البشر لقال :

احفروا على لوح قبري : هنـا بقايا من كتب اسمه على أديم السماء بأحرف من نار .

بين الخرائب

وشح القمر تلك الخمائل المحاطة بمدينة الشمس برقعاً لطيفاً ، وظفر الهدوء بأعنة الكائنات ، وبانت تلك الخرائب الهائلة كأنها جبّار يهزأ بعاديات الليالي .

في تلك الساعة انبثق من لا شيء خيالان يشبهان أبخرة متصاعدة من بحيرة زرقاء وجلسا على عمود رخامي استأصله الدهر من ذلك البناء الغريب يتأملان بمحيط يحاكي مسارح السحر . وبعد هنيهة رفع أحدهما رأسه ، وبصوت يشبه الصدى الذي تردده خلايا الأودية البعيدة قال :

هذه بقايا هياكل بنيتها من أجلك يا محبوبتي ، وتلك رمم قصر رفعته لاستحسانك وقد دكت ولم يبقَ منها سوى أثر يحدّث الأمم بمجد صرفت الحياة لتعميمه وعزّ استخدمت الضعفاء لتعظيمه . تأملي يا محبوبتي ، فقد تغلبت العناصر على مدينة شيدتها ، واستصغرت الأجيال حكمة رأيتها ، وأضاع النسيان ملكاً رفعته ولم يبقَ لي سوى دقائق المحبة التي أولدها جمالك ونتائج الجمال الذي أحياه حبك . بنيت هيكلاً في أورشليم للعبادة فقدسه الكهان ثم سحقته الأيام ، وبنيت هيكلاً بين أضلعي للمحبة فقدسه الله ولن تقوى عليه القوات . صرفت

العمر مستفسراً ظواهر الاشياء مستنطقاً أعمال المادة فقال الإنسان : ما أحكمه ملكاً ! وقالت الملائكة : ما أصغره حكيماً ! ثم رأيتك يا محبوبتي وغنيت فيك نشيد محبة وشوق ففرحت الملائكة ، أما الانسان فلم ينتبه ... كانت أيام ملكي كالحواجز بين نفسي الظمآنة والروح الجميل المستقر في الكائنات ، ولما رأيتك استيقظت المحبة وهدمت تلك الحواجز فأسفت على عمر صرفته مستسلماً لتيارات القنوط حاسباً كل شيء تحت الشمس باطلاً . حبكت الدروع وطرقت التروس فخافتني القبائل ، ولما أنارتني المحبة احتُقرت حتى من شعبي ، ولكن عندما جاء الموت اودع تلك الدروع والتروس التراب وحمل محبتي إلى الله .

وبُعيد سكينة قال الخيال الثاني : مثلما تكتسب الزهرة عطرها وحياتها من التراب كذلك تستخلص النفس من ضعف المادة وخطإها قوة وحكمة .

عندئذ تمازج الخيالان وصارا خيالاً واحداً وسارا . وبعد هنيهة أذاع الهواء هذه الكلمات في تلك الانحاء :

لا تحفظ الابدية إلّا المحبة لانها مثلها ...

رؤيا

ارفع هذه الرسالة إلى الفيكونتس
س. ل. جواباً على رسالة اكرمتني بها

مشى الشباب أمامي فاتبعت مسيره ، حتى إذا بلغنا حقلاً بعيداً وقف متأملاً الغيوم الجارية فوق خط الشفق كأنها قطيع نعاج بيضاء ، والاشجار المشيرة بأغصانها العارية إلى العلاء كأنها تطلب من السماء استرجاع اوراقها الغضة . فقلت : اين نحن ايها الشباب ؟ قال : في حقول الحيرة فانتبه . قلت : لنرجع ! لان وحشة المكان تخيفني ومرأى الغيوم والاشجار العارية يحزن نفسي . قال : اصبر فالحيرة بدء المعرفة . ثم نظرت فإذا بحورية تقترب منا كالخيال فصرخت مستغرباً : من هذه ؟ قال : هي ميلبومين ابنة جوبيتر وربة الروايات المحزنة . قلت : وماذا تبتغي الاحزان مني وأنت بجانبي ايها الشباب المفرح ؟ قال : جاءت لتريك الارض وأحزانها ، ومن لا يرى الاحزان لا يرى الفرح .

ووضعت الحورية يدهـا على عيني ، ولما رفعتها رأيتني منفصلاً عن شبابي مجرداً من ثوب المادة . فقلت : اين الشباب

يا ابنة الآلهة ؟ فلم تجبني بل ضمتني بجناحيها وطارت بي الى قمة جبل عالٍ فرأيت الارض وما فيها منبسطة أمامي كالصفحة وأسرار سكانها ظاهرة لعيني كالخطوط ، فوقفت متهيباً بجانب الحورية متأملاً خفايا الانسان مستفسراً رموز الحياة . رأيت ، وليتني لم أرَ . رأيت ملائكة السعادة تحارب أبالسة الشقاء والانسان بينهما في حيرة تميل به نحو الامل تارة والقنوط اخرى. رأيت الحب والبغض يلعبان بالقلب البشري : هذا يستر ذنوبه ويسكره بخمرة الاستسلام ويطلق لسانه بالمدح والاطراء، وذاك يهيج خصوماته ويعميه عن الحقيقة ويغلق سامعته عن القول الصحيح . رأيت المدينة جالسة كابنة الأزقة متشبثة بأذيال ابن آدم . ثم رايت البرية الجميلة واقفة عن بعد تبكي من اجله .

رأيت الكهان يروغون كالثعالب ، والمسحاء الكذبة يحتالون على ميول النفس ، والانسان يصرخ مستنجداً بالحكمة وهي نافرة عنه غضبى عليه لانه لم يسمعها عندما نادته في الشوارع على رؤوس الاشهاد . رأيت القسوس يكثرون رفع عيونهم الى السماء وقلوبهم مطمورة في قبور المطامع . رأيت الفتيان يتحببون بألسنتهم ويقتربون بآمال نزقهم وألوهيتهم بعيدة ، وعواطفهم نائمة . رأيت المتشرعين يتاجرون بثرثرة الكلام بسوق الخداع والرياء والاطباء يلعبون بأرواح البسطاء الواثقين . رأيت الجاهل يجالس العاقل فيرفع ماضيه على عرش المجد ويوسد حاضره بساط السعة ويمدّ لمستقبله فراش الفخامة .

رأيت الفقراء المساكين يزرعون والاغنياء الاقوياء يحصدون ويأكلون ، والظلم واقف هناك والناس يدعونه الشريعة . رأيت لصوص الظلمة يسرقون كنوز العقل وحراس النور غرقى في كرى التواني . رأيت المراة كالقيثارة في يد رجل لا يحسن الضرب عليها فتُسمعه انغاماً لا ترضيه . رأيت تلك الكتائب المعروفة تحاصر مدينة الشرف الموروث . لكني رأيت كتائب قد اندحرت لانها قليلة غير متحدة . رأيت الحرية الحقيقية تسير وحدها في الشوارع وامام الابواب تطلب مأوى والقوم يمنعونها . ثم رأيت الابتذال يسير بموكب عظيم والناس يدعونه الحرية . رأيت الدين مدفوناً طي الكتاب والوهم قائماً مقامه . رأيت الانسان يلبس الصبر ثوب الجبانة ، ويعطي التجلد لقب التواني ، ويدعو اللطف باسم الخوف . رأيت المتطفّل على موائد الآداب يدّعي والمدعو اليها صامتاً . رأيت المال بين يدي المبذر شبكة شروره وبين يدي البخيل مجلبة لمقت الناس ، وبين يدي الحكيم لم ارَ مالاً .

عندما رأيت كل هذه الاشياء صرخت متألماً من هذا المنظر : أهذه هي الارض يا ابنة الآلهة ؟ أهذا هو الانسان ؟ فأجابت بسكينة جارحة : هذه طريق النفس المفروشة شوكاً وقطرباً . هذا ظل الانسان . هذا هو الليل وسيجيء الصباح . ثم وضعت يدها على عينيَّ ، ولما رفعتها وجدتني وشبابي سائراً على مهل ، والامل يركض أمامي .

الأمس واليوم

مشى الموسر في حديقة صرحه ومشى الهم متبعاً خطواته ، وحام القلق فوق رأسه مثلما تحوم النسور على جثة صفعها الموت ، حتى بلغ بحيرة تسابقت في صنعها أيدي الإنسان وجمعت جوانبها منطقة من الرخام المنحوت . فجلس هناك ينظر آناً الى المياه المتدفقة من أفواه التماثيل تدفق الأفكار من مخيلة العاشق ، وآونة إلى قصره الجميل الجالس على تلك الرابية جلوس الخال على وجنة الفتاة .

جلس فجالسته الذكرى ونشرت امام عينيه صفحات كتبها الماضي في رواية حياته فأخذ يتلوها والدموع تحجب عنه محيطاً صنعه الإنسان واللهفة تعيد الى قلبه رسوم أيام نسجتها الآلهة حتى أبت لوعته إلا الكلام فقال :

كنت بالأمس أرعى الغنم بين تلك الروابي المخضرة وأفرح بالحياة وأنفخ في شبّابتي معلناً غبطتي ، وها أنا اليوم أسير المطامع يقودني المال الى المال ، والمال الى الانهماك ، والانهماك الى الشقاء . كنت كالعصفور مغرداً ، وكالفراش متنقلاً ، ولم يكن النسيم أخف وطأة على رؤوس الأعشاب من خطوات أقدامي في تلك الحقول ، وها أنا سجين عادات

الاجتماع : أتصنع بملابسي وعلى مائدتي وبكل أعمالي من أجل إرضاء البشر وشرائعهم . كنت أود لو اني خُلقت لأتمتع بمسرات الوجود ، ولكني أراني اليوم متبعاً بحكم المال سبل الغم ، فصرت كالناقة المثقلة بحمل من الذهب ، والذهب يميتها . أين السهول الواسعة ؟ أين السواقي المترنمة ؟ أين الهواء النقي ؟ أين مجد الطبيعة ؟ أين ألوهيتي ؟ قد ضيعت كل ذلك ولم يبقَ لي غير ذهب احبه فيستهزىء بي ، وعبيد أكثرتهم فقلّ سروري ، وصرح رفعته ليهدم غبطتي . كنت وابنة البدو نسير والعفاف ثالثنا ، والحب نديمنا ، والقمر رقيبنا ، واليوم أصبحت بين اللواتي يمشين ممدودات الأعناق ، غامزات العيون ، الشاريات الحسن بالسلاسل والمناطق ، البائعات الوصل بالأساور والخواتم . كنت والفتيان نخطر بين الأشجار كسرب الغزلان ، نشترك بإنشاد الأغاني ، نقتسم ملذات الحقول ، واليوم صرت بين القوم كالنعجة بين الكواسر أمشي في الشوارع فتنفتح عليّ عيون البغض ويشار إليّ بأصابع الحسد ، وإن ذهبت الى المنتزهات لا أرى غير وجوه كالحة ورؤوس شامخة . بالأمس أعطيت الحياة وجمال الطبيعة ، واليوم سُلبتها . بالأمس كنت غنيّاً بسعادتي واليوم أصبحت فقيراً بمالي . بالأمس كنت ونعاجي مثل ملك رؤوف ورعيته ، واليوم صرت لدى الذهب كالعبد المتصاغر أمام السيد المظلوم ... ما كنت أحسب ان المال يطمس عين

نفسي ويقودها الى مغاور الجهل ، ولم أدرِ ان ما يحسبه الناس مجداً كان واحرّ قلباه جحيماً ...

وقام الموسر من مكانه ومشى ببطء نحو قصره متأوهاً مردداً : أهذا هو المال ؟ أهذا الإله الذي صرت كاهنه ؟ أهذا ما نبتاع بالحيـاة ولا يمكننا أن نستبدل به ذرة من الحيـــاة ؟ من يبيعني فكراً جميلاً بقنطار من الذهب ؟ من يأخـذ قبضة من الجواهر بدقيقة محبة ؟ من يعطيني عيناً ترى الجمال ويأخذ خزائني ؟

ولما وصل الى باب القصر نظر نحو المدينة نظرة إرميا إلى أورشليم وأومأ بيده نحوها كأنه يرثيهـا وقال بصوت عالٍ : ايهـــا الشعب السالك في الظلمة ، الجالس في ظل الموت ، الراكض وراء التعاسة ، القاضي بالبُطل ، المتكلم بالحماقة ، إلى متى تأكل الشوك والحسك وترمي الثمار والزهر إلى الهاوية ؟ حتى متى تسكن الوعر والخرائب تاركاً بستان الحياة ؟ لماذا ترتدي الأطمار البالية وثوب الدمقس قد فُصّل من أجلك ؟ أيها الشعب قد انطفأ سراج الحكمة فاسقِه زيتاً . وخرّب ابن السبيل كرم السعادة فاحرسه . وسرق اللص خزائن راحتك فانتبه !

في تلك الدقيقة وقف أمام الغني فقير ومدّ يده متسولاً ، فنظر اليه وقد انضمت شفتاه المرتجفتان وانبسطت سحنته

المنقبضة وانبعث من عينيه نور لطيف . كان الأمس الذي رثاه بقرب البحيرة قد مرّ مسلّماً فاقترب من المستعطي وقبّله قبلة المحبة والمساواة وملأ يده ذهباً وقال والرأفة تسيل من كلماته : خذ يا أخي الآن وعد غداً مع أترابك واسترجعوا أموالكم . فابتسم الفقير ابتسامة الزهرة الذابلة بُعيد المطر وراح مسرعاً .

حينئذ دخل الموسر الى قصره قائلاً : كل شيء حسن في الحياة حتى المال لأنه يعلّم الإنسان إمثولة . إنما المال كالأرغن يُسمع من لا يحسن الضرب عليه أنغاماً لا ترضيه . المال كالحب يميت من يضن به ويحيي واهبه .

رحماك يا نفس ٧ رحماك !

حتى مَ تنوحين يا نفسي وأنت عالمة بضعفي ؟ الى متى تضجين وليس لديّ سوى كلام بشري أصوّر به أحلامك؟

انظري يا نفسي فقد انفقت عمري مصغياً لتعاليمك . تأملي يا معذبتي فقد أتلفت جسمي متبعاً خطواتك .

كان قلبي مليكي فصار الآن عبدك ، وكان صبري مؤنسي فغدا بك عذولي . كان الشباب نديمي فأصبح اليوم لائمي ، وهذا كل ما أوتيته من الآلهة ، فمّ تستزيدين وبمَ تطمعين ؟

قد أنكرت ذاتي وتركت ملاذ حياتي وغادرت مجد عمري ولم يبقَ لي سواك ، فاقضي عليّ بالعدل ، فالعدل مجدك ، او استدعي الموت واعتقي من الاسر معنّاك .

رحماك يا نفس ! فقد حملتني من الحب ما لا أطيقه : أنت والحب قوة متحدة ، وأنا والمادة ضعف متفرق ، وهل يطول عراكٌ بين قويّ وضعيف ؟

رحماك يا نفس ! فقد أريتني السعادة عن بعد شاسع : انت والسعادة على جبل عالٍ ، وأنا والشقاء في أعماق الوادي ، وهل يتم اللقاء بين علو ووطوءة ؟

رحماك يا نفس ! فقد أبنت لي الجمـــال وأخفيتهُ : انت والجمال في النور ، وأنا والجهل في الظلمة ، وهـــل يمتزج النور بالظلمة ؟

انت يا نفس تفرحين بالآخرة قبل مجيء الآخرة ، وهذا الجسد يشقى بالحياة وهو في الحياة .

انت تسيرين نحو الأبدية مسرعة ، وهذا الجسد يخطو نحو الفناء ببطء ، فلا انت تتمهلين ولا هو يسرع ، وهـــذا يا نفس منتهى التعاسة .

انت ترتفعين نحو العلو يجاذب السما ، وهذا الجسد يسقط إلى تحتٍ بجاذبية الأرض ، فلا انت تعزّينه ولا هو يهنئك ، وهذه هي البغضاء .

انت يا نفس غنية بحكمتك ، وهذا الجسد فقير بسليقته ، فلا انت تتساهلين ولا هو يتبع ، وهذا هو أقصى الشقاء .

انت تذهبين في سكينة الليل نحو الحبيب وتتمتعين منه بضمة وعناق ، وهـــذا الجسد يبقى أبـداً قتيل الشوق والتفريق .

رحماك يا نفس رحماك !

الأرملة وابنها

هجم الليل مسرعاً على شمالي لبنان مستظهراً على نهار تساقطت فيه الثلوج على تلك القرى المحيطة بوادي قاديشا جاعلة تلك الحقول والهضاب صفحة بيضاء ترسم عليها الرياح خطوطاً تمحوها الرياح وتتلاعب بها العواصف مازجة الجو الغضوب بالطبيعة الهائلة.

اختبأ الإنسان في منازله والحيوان في مرابضه وسكنت حركة كل ذي نسمة حية ولم يبقَ غير برد قارس وزمهرير هائج وليل أسود مخيف وموت قوي مريع.

وكان في منزل منفرد بين تلك القرى امرأة جالسة امام موقد تنسج الصوف رداء وبقربها وحيدها ينظر تارة الى اشعة النار، وطوراً الى وجه أمه الهادىء. في تلك الساعة عصفت الرياح بشدة وهزت اركان ذلك البيت، فذعر الصبي واقترب من أمه محتمياً بحنوها من غضب العناصر، فضمته الى صدرها وقبلته ثم اجلسته على ركبتيها وقالت له: لا تجزع يا ابني، فالطبيعة تريد ان تعظ الإنسان مظهرة عظمتها تجاه صغره، وقوتها بجانب ضعفه. لا تخف يا ولدي، فمن وراء الثلوج المتساقطة والغيوم المتلبدة

والرياح العاصفة روح قدوس كلي عالم بما تحتاج اليه الحقول والآكام . من وراء كل شيء قوة ناظرة الى حقارة الانسان بعين الشفقة والرحمة . لا تجزع يا فلذة كبدي . فالطبيعة التي ابتسمت في الربيع وضحكت في الصيف وتأوهت في الخريف تريد ان تبكي الآن ، ومن دموعها الباردة تستقي الحياة الرابضة تحت اطباق الثرى . نم يا ولدي ، ففي الغد تستيقظ وترى السماء صافية الاديم ، والحقول لابسة رداء الثلج الناصع مثلما ترتدي النفس ثوب الطهر بعيد مصارعة الموت . نم يا وحيدي ، فوالدك ناظر الآن الينا من مسارح الابدية ، وحبذا عاصفة وثلوج تقربنا من ذكر تلك النفوس الخالدة . نم يا حبيبي ، فمن هذه العناصر المتحاربة بعنف سوف تجني الازهار الجميلة عندما يجيء نيسان . كذا الانسان يا ابني لا يستثمر المحبة الا بعد بعاد اليم ، وصبر مرّ ، وقنوط متلف . نم يا صغيري ، فسوف تأتي الاحلام العذبة الى نفسك غير خائفة من هيبة الليل وبطش البرد .

ونظر الصبي الى أمه وقد كحل النعاس عينيه وقال : لقد اثقل اجفاني الكرى يا أماه واخاف ان انام قبل تلاوة الصلاة . فعانقته الام الحنون ونظرت من وراء الدموع الى وجهه الملائكي ثم قالت : قل معي يا ولدي : اشفق يا رب على الفقراء واحمهم من قساوة البرد القارس واستر جسومهم العارية بيدك . انظر الى اليتامى النائمين في

الاكواخ وانفاس الثلج تكلّم اجسامهم . اسمع يا رب نداء الارامل القائمات في الشوارع بين مخالب الموت واظفار البرد. أمدد يدك يا رب الى قلب الغني وافتح بصيرته ليرى فاقة الضعفاء المظلومين . ارفق يا رب بالجائعين الواقفين امام الابواب في هذا الليل الظلوم واهدِ الغرباء الى المآوي الدافئة وارحم غربتهم . انظر يا رب الى العصافير الصغيرة واحفظ بيمينك الاشجار الخائفة من قساوة الرياح . . . ليكن هذا يا رب .

ولما عانق الكرى نفس الصبي مدّته والدته على فراشه وقبلت جبهته بشفتين مرتجفتين ثم رجعت وجلست امام الموقد تنسج له الصوف رداء .

يا خليلي الفقير

يا من وُلدتَ على مهد الشقاء وربيت على احضان الذل وشببت في منازل الاستبداد ، أنت الذي تأكل خبزك اليابس بالتنهد وتشرب ماءك العكر ممزوجاً بالدموع والعبرات .

ويا ايها الجندي المحكوم عليه من شرائع البشر الظالمة بأن يترك رفيقته وصغاره ومحبيه ويذهب الى ساحة الموت من اجل طمع يدعونه الواجب .

ويا ايها الشاعر الذي يعيش غريباً في وطنه ومجهولاً بين معارفه ويرضى من العيش بمضغة ومن الحطام بالحبر والورق .

ويا أيها السجين المطروح في الظلمة من أجل ذنب صغير جسّمه غيّ الذين يقابلون الشرّ بالشرّ واستغربتهُ عاقلة الألى يرومون الإصلاح بواسطة الفساد .

وأنت أيتها المسكينة التي وهبها الله جمالاً رآه فتى العصر فاتبعك وغرّك وتغلب على فقرك بالذهب فاستسلمت له وغادرك فريسة ترتعد بين مخالب الذل والتعاسة .

أنتم يا أحبائي الضعفاء شهداء شرائع الإنسان ، انتم تعساء

دنس . القلب البشري يستنجد بنا والنفس تنادينا ونحن أشد صمماً من الجماد لا نعي ولا نفهم ، وإذا ما سمع احد صراخ قلبه ونداء نفسه قلنا هذا ذو جنة وتبرأنا منه .

هكذا تمر الليالي ونحن غافلون وتصافحنا الايام ونحن خائفون من الليالي والايام . نقترب من التراب والآلهة تنتمي الينا ونمر على خبز الحياة والمجاعة تتغذى من قوانا ، فما احب الحياة الينا وما ابعدنا عن الحياة !

بين الحقيقة والخيال

تحملنا الحياة من مكان الى مكان وتنتقل بنا التقادير من محيط الى آخر ونحن لا نرى إلا ما وقف عثرة في سبيل سيرنا ولا نسمع سوى صوت يخيفنا .

يتجلى لنا الجمال على كرسي مجده فنقترب منه وباسم الشوق ندنس أذياله ونخلع عنه تاج طهره . يمر بنا الحب مكتسياً ثوب الوداعة فنخافه ونختبيء في مغاور الظلمة أو نتبعه ونفعل باسمه الشرور ، والحكيم بيننا يحمله نيراً ثقيلاً وهو ألطف من أنفاس الازهار وأرق من نسيمات لبنان . تقف الحكمة في منعطفات الشوارع وتنادينا على رؤوس الاشهاد فنحسبها بطلاً ونحتقر متبعيها . تدعونا الحرية الى مائدتها لنلتذ بخمرها وأطعمتها فنذهب ونشره فتصير تلك المائدة مسرحاً للابتذال ومجالاً لاحتقار الذات . تمد الطبيعة نحونا يد الولاء وتطلب منا أن نتمتع بجمالها فنخشى سكينتها ونلتجيء الى المدينة وهناك نتكاثر بعضنا على بعض كقطيع رأى ذئباً خاطفا . تزورنا الحقيقة منقادة بابتسامة طفل او قبلة محبوبة فنوصد دونها أبواب عواطفنا ونغادرها كمجرم

العظيم قد جعل قلبي مذبحاً طاهراً ، هي المرأة يا خليلي ، المرأة التي ظننتها بالامس ألعوبة الرجل قد أنقذتني من ظلمة الجحيم وفتحت أمامي أبواب الفردوس فدخلت . المرأة الحقيقية قد ذهبت بي الى اردن محبتها وعمدتني . تلك التي احتقرت اختها بغباوتي قد رفعتني الى عرش المجد . تلك التي دنست رفيقتها بجهلي قد طهرتني بعواطفها . تلك التي استعبدت بنات جنسها بالذهب قد حررتني بحبها ... تلك التي أخرجت آدم من الجنة بقوة إرادتها وضعفه قد أعادتني الى تلك الجنة بحنوّها وانقيادي .

في تلك الدقيقة نظرت اليه فوجدت المدامع تتلألأ في عينيه ، والابتسام يراود شفتيه ، وشعاع الحب يكلل رأسه ، فاقتربت منه وقبلت جبهته متبركاً مثلما يقبل الكاهن صحن المذبح ، ثم ودعته ورجعت مردداً قوله تلك التي أخرجت آدم من الجنة بقوة ارادتها وضعفه قد أعادتني الى تلك الجنة بحنوها وانقيادي .

قلت : ويحي ! أيريد أن يشفع صداقته المحزنة بصداقة آخر على شاكلته ؟ أوَلم يكن وحده أمثولة كافية لتعريف آيات الضلال ؟ وهل يروم الآن تذييل تلك الأمثولة بآيات رفاقه كيلا يفوتني حرف من كتاب المادة ؟ ثم قلت : اذهب فالنفس تجني من العوسج تيناً بحكمتها ، والقلب يستمد من الظلمة نوراً بمحبته ... ولما جاء الليل ذهبت فوجدت ذلك الفتى منفرداً في غرفته يقرأ كتاباً شعرياً ، فحييته مستغرباً وجود الكتاب بين يديه وقلت : أين الصديق الجديد ؟ قال : هو أنا يا خليلي ، هو أنا . ثم جلس بهدوء ما عهدته فيه ونظر إليّ وفي عينيه نور غريب يخرق الصدر ويحيط بالجوارح . تانك العينان اللتان طالما تأملتهما ولم أرَ فيهما غير العنف والقساوة أصبحتا تبعثان نوراً يملأ القلب انعطافاً . ثم قال بصوت حسبته صادراً من غير : ان ذاك الذي عرفته في الحداثة ورافقته أيام المدرسة وماشيته في الشبيبة قد مات وبموته ولدت انا . انا صديقك الجديد فخذ يدي . أخذت يده فشعرت عند الملامسة ان في تلك اليد روحاً لطيفاً يسري مع الدماء . تلك اليد العنيفة قد صارت لينة . تلك الاصابع التي شابهت بالامس مخالب النمر بأعمالها أصبحت تلامس القلب برقتها . ثم قلت وليتني أذكر غرابة ما قلت : من أنت وكيف سرت وأين صرت ؟ هل اتخذك الروح هيكلاً فقدسك أم أنت تمثل أمامي دوراً شعرياً قال : إي يا صديقي إن الروح قد حـــلّ عليّ وقدّسني . الحب

أحببت هذا الفتى وكنت مخلصاً له لأنني رأيت حمامة ضميره تغالب نسر سيئاته فتُغلب تلك الحمامة بقوة عدوها لا بجبانتها . الضمير قاضٍ عادل ضعيف والضعف واقف في سبيل تنفيذ أحكامه .

قلت أحببته والمحبة تأتي بأشكال مختلفة ، فهي الحكمة آناً ، والعدل آونة ، والأمل أخرى ، فمحبتي له كانت أملي باستظهار نور شمسه الوضعي على ظلمة متاعبها العرضية على انني كنت جاهلاً أنّى وأين تتبدل الادران بنقاوة ، والشراسة بوداعة ، والطيش بحكمة ، والإنسان لا يدري كيفية انعتاق النفس من عبودية المادة الا بعد الانعتاق ، ولا يعرف كيف تبتسم الازهار إلا بعد مجيء الصباح .

- ٢ -

مرت الأيام آخذة بأعناق الليالي ، وانا أذكر ذلك الفتى بغصات مؤلمة ، وأردف لفظ اسمه بتنهدات تجرح القلب وتدميه ، حتى وافاني بالامس كتاب منه قال فيه :

- تعالَ إليّ يا صديقي فأنا أريد أن أجمع بينك وبين فتى يسرُّ قلبك لقاؤه وتطيب نفسك بمعرفته ...

حكاية صديق

- ١ -

عرفته فتىً ضائعاً في مسالك حياته ، محكوماً بمفاعيل شبيبته ، مستميتاً في إدراك غرض ميوله . عرفته زهرة لينة حملتها رياح النزق الى لجة الشهوات .

عرفته في تلك القرية صبيّاً شرساً يمزق بيديه أعشاش العصافير ويميت أفراخها ، ويسحق برجليه تيجان الازهار ويبيد محاسنها . وعرفته في المدرسة يافعاً ، بعيداً عن الاقتباس ، قريباً من الغطرسة ، عدوّاً للسكينة . وعرفته في المدينة شابّاً يتاجر بشرف أبيه في سوق الخسائر ، ويبذر أمواله في نوادي التهتك ، ويعطي عاقلته لابنة الكرمة .

ولكني كنت أحبه . أحبه محبة يساورها الأسف ويمازجها الإشفاق . أحبه لأنّ منكراته لم تكن نتائج نفس صغيرة ، بل كانت مآتي نفس ضعيفة قانطة . النفس ايها الناس تميل عن سبل الحكمة مكرهة وتعود اليها مريدة . وللشبيبة أعاصير تهب حاملة غباراً ورمالاً تملأ الاجفان فتغمضها وتعميها ، تعميها الى أمد بعيد في أكثر المواطن .

الذي تراه جاهلاً وصغيراً هو الذي جاء من لدن الله ليتعلم الفرح بالحزن والمعرفة من الظلمة ...

ووضعت الحكمة يدها على جبهتي الملتهبة وقالت : سر الى الامام ولا تقف البتة ، فالامام هو الكمال . سر ولا تخشَ أشواك السبيل ، فهي لا تستبيح الا الدماء الفاسدة .

الراضي بمحبة السعادة ، ودون وصالها الهاوية ، الطالب قبلة الحياة والموت يصفعه ، الشاري دقيقة اللذة بعام الندامة ، المستسلم للكرى والأحلام تناديه ، السائر مع سواقي الجهالة الى خليج الظلمة ؟ ما هذه الأشياء أيتها الحكمة ؟..

فقالت : أنت تريد أيها البشري أن ترى هذا العالم بعين اله وتريد أن تفقه مكنونات العالم الآتي بفكرة بشرية، وهذا منتهى الحماقة . اذهب الى البرية تجد النحلة حائمة حول الزهور والنسر ينقض على الفريسة . ادخل بيت جارك ترَ الطفل مدهوشاً بأشعة النار والوالدة مشغولة بأعمال منزلها . كن أنت كالنحلة ولا تصرف أيام الربيع ناظراً أعمال النسر . كن كالطفل وافرح بأشعة النار ودع والدتك وشأنها . كلُّ ما تراه كان ويكون من أجلك . الكتب الكثيرة والرسوم الغريبة والافكار الجميلة هي أشباح نفوس الذين تقدموك . الكلام الذي تحوكه هو الواصل بينك وبين اخوانك البشر . النتائج المحزنة المفرحة هي البذور التي ألقاها الماضي في حقل النفس وسوف يستغلها المستقبل... ان هذا الشباب المتلاعب بميولك هو هو الفاتح باب قلبك لدخول النور . انَّ هذه الأرض الفاغرة فاها هي التي تخلص نفسك من عبودية جسدك . ان هذا العالم السائر بك هو قلبك ، فقلبك هو كل ما تظنه عالماً . ان هذا الانسان

زيارة الحكمة

في هدوء الليل جاءت الحكمة ووقفت بقرب مضجعي ونظرت اليّ نظرة الأم الحنون ومسحت دموعي وقالت : سمعت صراخ نفسك فأتيت لأعزيها . ابسط قلبك أمامي فأملأه نوراً . سلني فأريك سبيل الحق . فقلت : من أنا أيتها الحكمة وكيف سرت الى هذا المكان المخيف ؟ ما هذه الأماني العظيمة والكتب الكثيرة والرسوم الغريبة ؟ ما هذه الأفكار التي تمر كسرب الحمام ؟ ما هذا الكلام المنظوم بالميل ، المنثور باللذة ؟ ما هذه النتائج المحزنة ، المفرحة ، المعانقة روحي ، المساورة قلبي ؟ ما هذه العيون المحدقة بي ، الناظرة أعماقي ، المنصرفة عن آلامي ؟ ما هذه الأصوات النائحة على أيامي ، المترنمة بصغري ؟ ما هذا الشباب المتلاعب بميولي ، المستهزىء بعواطفي ، الناسي أعمال الأمس ، الفارح بتفاهة الحال ، المستنكف من بطء الغد ؟ ما هذا العالم السائر بي الى حيث لا أدري ، الواقف معي موقف الهوان ؟ ما هذه الأرض الفاغرة فاها لابتلاع الاجسام ، المفرجة صدرها لسكنى المطامع ؟ ما هذا الانسان

هو قوة تبتدىء في قدس أقداس ذاتك وتنتهي في مـــا وراء تخيلاتك ...

واقتربت ابنة الأحراج مني ووضعت يدها المعطرة على عيني ، ولما رفعتها رأيتني وحيداً في ذلك الوادي ، فرجعت ونفسي مرددة : انّ الجمال هو مـا تراه وتودّ أن تعطى لا أن تأخذ .

آلهتهم وأديانهم سوى صفحات قليلة في بطون الكتب .
قالت : بعض الآلهة يحيون بحياة عبادهم ويموتون بموتهم .
وبعضهم يحيون بألوهة أزلية أبدية . أما ألوهيتي فهي مستمدة من جمال تراه كيفما حولت عينيك . جمـــال هو الطبيعة بأسرها . جمال كان بدء سعادة الراعي بين الرُّبى ، والقروي بين الحقول ، والعشائر الرحل بين الجبل والساحل . جمال كان للحكيم مرقاةً إلى عرش حقيقة لا تجرح . قلت ودقات قلبي تقول ما لا يعرفه اللسان : إنّ الجمال قوة مخيفة رهيبة .
فقالت وعلى شفتيها ابتسامة الأزهـار وفي نظرها أسرار الحياة : أنتم البشر تخافون كل شيء حتى ذواتكم . تخافون السماء وهي منبع الأمن . تخافون الطبيعة وهي مرقد الراحة ، وتخافون إله الآلهة وتعزون اليه الحقد والغضب وهو إن لم يكن محبة ورحمة لم يكن شيئاً .

وبعد سكينة مازجتها الأحلام اللطيفة سألتها : ما هذا الجمال ؟ فقد تباين الناس بتعريفه ومعرفته مثلمـا اختلفوا بتمجيده ومحبته . قالت : هو ما كان بنفسك جاذب اليه ، هو ما تراه وتود أن تعطى لا أن تأخذ هو ما شعرت عند ملقاه بأيدٍ ممدودة من أعماقك لضمه الى أعماقك ، هو ما تحسبه الأجسام محنة والأرواح منحة ، هو الفة بين الحزن والفرح ، هو ما تراه محجوباً وتعرفه مجهولاً وتسمعه صامتاً ،

أمام عرش الجمال

هربت من الاجتماع وهمت في ذاك الوادي الواسع متبعاً مجاري الجدول تارة ومصغياً إلى محاوراة العصافير طوراً، حتى بلغت مكاناً حمته الأغصان من نظرات الشمس، فجلست اسامر وحدتي وأناجي نفسي. نفس ظامئة رأت كل ما يُرى سراباً وكل ما لا يُرى شراباً.

ولما انطلقت عاقلتي من محبس المادة إلى فضاء الخيال التفتُّ فإذا بفتاة واقفة على مقربة مني. حورية لم تتخذ من الحلي والحلل سوى غصن من الكرمة تستر به بعض قامتها واكليل من الشقيق يجمع شعرها الذهبي ... وإذ علمت من نظراتي انني صرت مسلوب الفجأة والحيرة قالت: انا ابنة الأحراج فلا تجزع. قلت وقد ردت حلاوة صوتها بعض رمقي: وهل يقطن من كان مثلك برية سكنتها الوحشة والوحوش؟ قولي لي بعيشك من أنت ومن اين أتيت؟ فقالت وقد جلست على الاعشاب: انا رمز الطبيعة؟ انا العذراء التي عبدها آباؤك فبنوا لها مذابح وهياكل في بعلبك وأفقا وجبيل. قلت: تلك الهياكل قد انهدمت وعظام أجدادي ساوت أديم الأرض ولم يبقَ من آثار

يعقبه النشاط والعمل ، فالزهرة لا تعود إلى الحياة الا بالموت، والمحبة لا تصير عظيمة إلا بعد الفراق .

واقترب الشيخ من الفتاة ومدّ يده قائلاً : هزي يدي يا ابنة الانبياء . فأخذت يده وهي تنظر اليه من وراء الدمع وقالت : الوداع أيها الدهر الوداع . فأجابها إلى اللقاء يا سوريا إلى اللقاء .

حينئذ اختفى الشيخ كما يختفي البرق ، فنادت الصبية أغنامها ومضت مرددة : هل من لقاء يا ترى هل من لقاء ؟

منبت الخصب والرزق . كانت نعاجي ترتعي رؤوس الأزهار وتدر لبناً زكياً فها هي الآن خمص البطون تقضم الأشواك وأصول الأشجار مخافة الفناء .

اتقِ الله يا دهر وانصرف عني فقد كرهتني الحياة َذكرى مظالمك وحببت إليَّ الموتَ قساوةُ منجلك .

اتركني ووحدتي أرشف الدمع شراباً وأتنشق الحزن نسيماً واذهب يا دهر إلى الغرب حيث القوم في عرس الحياة وعيدها ودعني أنتحب في مآتم أنت عاقدها .

فنظر الشيخ إليها نظرة الأب وقد أخفى منجله طي أثوابه وقال :

ـ ما أخذت منك يا سوريا إلا بعض عطاي وما كنت ناهباً قط بل مستعيراً أردُّ ، ووفياً ارجع . واعلمي أن لأخواتك الأمم نصيباً باستخدام مجد كان عبدك ، وحقاً بلبس رداء كان لك . انا والعدل اقنومان لذات واحدة ، فلا يحمل بي سوى إعطاء أخواتك ما أعطيتك ، ولست قادراً على تسويتكن في محبتي ، لأنَّ المحبة لا تنقسم إلا على السواء . لك يا سوريا اسوة بحاراتك مصر وفارس واليونان إذ لكل منهنَّ قطيع يشابه قطيعك ومرعى نظير مرعاك . إنَّ ما تدعينه انحطاطاً يا سوريا أدعوه نوماً واجباً

الدهر والامة

على سفح لبنان بقرب جدول ينسلّ بين الصخور كأسلاك فضية جلست راعية يحيط بها قطيع غنم مهزول يرتعي الاعشاب اليابسة بين الأشواك الغضة ، صبية تنظر نحو الشفق البعيد كأنها تقرأ مآتي الآتي على صفحات الجو وقد نمق الدمع عينيها مثلما ينمق الندى أزهار النرجس ، وفتح الأسى شفتيها كأنه يريد سلب قلبها تنهداً .

ولما جاء المساء وأخذت تلك الروابي تلتف برداء الظل وقف أمام الصبية فجأة شيخ يتدلى شعره الأبيض على صدره وكتفيه حاملاً بيمينه منجلاً سنيناً وقال بصوت يحاكي هدير الأمواج : سلام على سوريا .

فوقفت الفتاة مذعورة وأجابته بصوت يقطعه الوجل ويصله الحزن قائلة : ماذا تبتغي الآن مني أيها الدهر ؟

ثم أومأت نحو أغنامها وزادت : هذه بقايا قطيع كان يملأ الأودية . هذه فضلة مطامعك فهل جئت لتستزيد منها؟

هذه هي المسارح التي أجدبها دوس قدميك وقد كانت

وتعاستكم نتيجة بغي القوي وجور الحاكم وظلم الغني وأنانية عبد الشهوات .

لا تقنطوا ، فمن مظالم هذا العالم ، من وراء المادة ، من وراء الغيوم ، من وراء الأثير ، من وراء كل شيء ، قوة هي كل عدل وكل شفقة وكل حنوّ وكل محبة .

أنتم مثل أزهار نبتت في الظل . سوف تمر نسيمات لطيفة وتحمل بذوركم الى نور الشمس فتحيون هناك حياة جميلة .

أنتم نظير أشجار عارية مثقلة بثلوج الشتاء . سوف يأتي الربيع ويكسوكم أوراقاً خضراء غضّة .

سوف تمزق الحقيقة غشاء الدمع الحاجب ابتساماتكم .

أنا أقبلكم يا إخوتي وأحتقر مضطهديكم .

مناجاة في الحقل

عند الفجر قبيل بزوغ الشمس من وراء الشفق جلست في وسط الحقل أناجي الطبيعة . في تلك الساعة المملوءة طهراً وجمالاً بينما كان الإنسان مستتراً طي لحف الكرى تنتابه الأحلام تارة واليقظة أخرى كنت متوسداً الأعشاب استفسر كل ما أرى عن حقيقة الجمال واستحكي ما يرى عن جمال الحقيقة .

ولما فصلت تصوراتي بيني وبين البشريات وأزاحت تخيلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقربني من الطبيعة ويبين لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها .

وبينما كنت على هذه الحالة مرَّ النسيم بين الأغصان متنهداً تنهد يتيم يائس ، فسألت مستفهماً : لماذا تتنهد يا ايها النسيم اللطيف ؟ فأجاب : لأنني ذاهب نحو المدينة مدحوراً من حرارة الشمس . الى المدينة حيث تتعلق بأذيالي النقيّة مكروبات الأمراض وتتشبث بي أنفاس البشر السامة . من أجل ذلك تراني حزيناً .

ثم التفتُّ نحو الأزهار فرأيتها تذرف من عيونها قطرات الندى دمعاً ، فسألت : لماذا البكاء يا أيتها الأزهار

الجميلة ؟ فرفعت واحدة منهنّ رأسها اللطيف وقالت : نبكي لأن الإنسان سوف يأتي ويقطع أعناقنا ويذهب بنا نحو المدينة ويبيعنا كالعبيد ونحن حرائر ، واذا ما جاء المساء وذبلنا رمى بنا الى الاقذار . كيف لا نبكي ويد الانسان القاسية سوف تفصلنا عن وطننا الحقل ؟

وبعد هنيهة سمعت الجدول ينوح كالثكلى ، فسألته : لماذا تنوح يا أيها الجدول العذب ؟ فأجاب لأنني سائر كرهاً الى المدينة حيث يحتقرني الإنسان ويستعيض عني بعصير الكرمة ويستخدمني لحمل أدرانه . كيف لا أنوح وعن قريب تصبح نقاوتي وزراً وطهارتي قذراً ؟

ثم أصغيت فسمعت الطيور تغني نشيداً محزناً يحاكي الندب فسألتها : لماذا تندبين يا أيتها الطيور الجميلة ؟ فاقترب مني عصفور ووقف على طرف الغصن وقال : سوف يأتي ابن آدم حاملاً آلة جهنمية تفتك بنا فتك المنجل بالزرع ، فنحن نودّع بعضنا بعضاً لأننا لا ندري من منا يتملص من القدر المحتوم . كيف لا نندب والموت يتبعنا اينما سرنا ؟

طلعت الشمس من وراء الجبل وتوجت رؤوس الأشجار بأكاليل ذهبية وأنا أسأل ذاتي : لماذا يهدم الانسان ما تبنيه الطبيعة ؟

بين الكوخ والقصر

- ١ -

جاء المساء وشعشعت الانوار الكهربائية في صرح الغني فوقف الخدام عـــلى الابواب بملابس مخملية وعلى صدورهم الأزرار اللامعة ينتظرون مجيء المدعوين .

صدحت الموسيقى بأنغامهـا المطربة وتقـاطر الأشراف والشريفات تجرّهم الخيول المطهمة نحو ذلك القصر فدخلوا يرفلون بالملابس المزركشة ويجرُّون أذيال العزة والفخر .

قـــام الرجـال ودعوا النساء للرقص فوقفن واخترن الاعزّاء وأصبحت تلك المقصورة روضة تمر بهـــا نسيمات الموسيقى فتتمايل أزاهرها تيهاً واعجاباً .

انتصف الليل فمدت سفرة عليها كل ما عزّ من الفاكهة وطاب من الألوان ، ودارت الكؤوس على الجميع فلعبت بنت الكرمة في عقولهم حتى ألعبتم .

جاء الصباح وتفرق شمل اولئك الأشراف الاغنياء بعد أن أضناهم السهر وسرقت عاقلتهم الخمرة وأتعبهم الرقص وأذبلهم القصف وذهب كل الى فراشه النائم .

- ٢ -

بعد أن غابت الشمس وقف رجل يرتدي أثواب الشغل أمام باب كوخ حقير وقرع ففتح له ودخل وحيّا مبتسماً ثم جلس بين صبية يصطلون بقرب النار. وبعد برهة هيأت زوجته العشاء فجلسوا جميعاً حول مائدة خشبية يلتهمون الطعام، ثم قاموا وجلسوا بقرب مسرجة ترسل سهام أشعتها الصفراء الضعيفة الى كبد الظلمة.

وبعد مرور الهزيع الأول من الليل قاموا بسكينة كلية واستسلموا لملك الرقاد.

جاء الفجر فهب ذلك الفقير من نومه وأكل مع صغاره وزوجته قليلاً من الخبز والحليب، ثم قبلهم، وحمل على كتفه معولاً ضخماً وذهب الى الحقل ليسقيه من عرق جبينه ويستثمر ويطعم قواه اولئك الأغنياء الأقوياء الذين صرفوا ليلة أمس بالقصف والخلاعة.

طلعت الشمس من وراء الجبل وثقلت وطأة الحر على رأس ذلك الحارث واولئك الأغنياء ما برحوا خاضعين لسنّة الكرى الثقيل في صروحهم الشاهقة.

هذه مأساة الإنسان المستتبة على مسرح الدهر وقد كثر المتفرجون المسحسنون وقلّ من تأمل وعقل.

طفلان

وقف الأمير على شرفة القصر ونادى الجموع المزدحمة في تلك الحديقة وقال : ابشركم وأهنىء البلاد ، فالاميرة قد وضعت غلاماً يحيي شرف عائلتي المجيدة ويكون لكم فخراً وملاذاً ووارثاً لما أبقته أجدادي العظام . افرحوا وتهللوا فمستقبلكم صار مناطاً بسليل المعالي .

فصاحت تلك الجموع ومـلأت الفضاء بأهازيج الفرح متأهلة بمن سوف يربى عـلى مهد الترف ويشب على منصة الاعزاز ويصير بعد ذلك حاكماً مطلقـا برقاب العباد ، ضابطا بقوته أعنة الضعفاء ، حرّاً باستخدام أجسادهم واتلاف أرواحهم . من أجل ذلك كانوا يفرحون ويغنون الأناشيد ويعاقرون كاسات السرور .

وبينما سكان تلك المدينة يمجـدون القوي ويحتقرون ذواتهم ويتغنون باسم المستبد والملائكة تبكي عـلى صغرهم كان في بيت حقير مهجور امرأة مطروحة على سرير السقام تضم الى صدرها الملتهب طفلا ملتفـا بأقمطة بالية .

صبية كتبت لها الايام فقراً ، والفقر شقاء ، فأهملها بنو الإنسان . زوجة أمات رفيقها الضعيف ظلم الامير القوي .

وحيدة بعثت اليها الآلهة في تلك الليلة رفيقا صغيراً يكبل يديها دون العمل والارتزاق .

ولما سكنت جلبة الناس في الشوارع وضعت تلك المسكينة طفلها على حضنها ونظرت في عينيه اللامعتين وبكت بكاء مرّاً ، كأنها تريد ان تعمده بالدموع السخينة ، وقالت بصوت تتصدع له الصخور : لماذا جئت يا فلذة كبدي من عالم الارواح ! أطمعا بمشاطرتي الحياة المرة ، أرحمة بضعفي ! لماذا تركت الملائكة والفضاء الواسع وأتيت الى هذه الحياة الضيقة المملوءة شقاء ومذلة ! ليس عندي يا وحيدي الا الدموع ، فهل تتغذى بها بدلاً من الحليب ، وهل تلبس ذراعيّ العاريتين عوضا عن النسيج ! صغار الحيوان ترعى الاعشاب وتبيت في أوكارها آمنة ، وصغار الطير تلتقط البذور وتنام بين الاغصان مغتبطة ، وأنت يا ولدي ليس لك الا تنهداتي وضعفي .

حينئذ ضمت الطفل الى صدرها بشدة كأنها تريد ان تجعل الجسدين جسداً واحداً ، ورفعت عينيها نحو العلاء وصرخت : ارفق بنا يا رب .

ولما انقشعت الغيوم عن وجه القمر دخلت أشعته اللطيفة من نافذة ذلك البيت الحقير وانسكبت على جسدين هامدين . .

شعراء المهجر

لو تخيل الخليل ان الاوزان التي نظم عقودها وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح ، وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود وفصم عرى تلك الاوصال .

ولو تنبأ المتنبي وافترض الفارض ان ما كتباه سيصبح مورداً لأفكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان وحطما الاقلام بأيدي الاهمال .

ولو درت أرواح هوميروس وفرجيـــل وأعمى المعرّة وملتون ان الشعر المتجسم من النفس المشابهة الله سيحط رحاله في منازل الاغنياء لبعدت تلك الارواح عن أرضنا واختفت وراء السيارات .

مـــا أنا من المتعنتين ، لكن يعز عليّ أن أرى لغة الارواح تتناقلها ألسنة الاغبياء ، وكوثر الآلهة يسيل على أقلام المدّعين ، ولست منفرداً في وهدة الاستياء بل رأيتني واحداً من كثيرين نظروا الضفدع تنتفخ تمثلاً بالجاسوس .

الشعر يا قوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحيي القلب او تنهدة تسرق من العين مدامعها . أشباح مسكنها

النفس وغذاؤها القلب ومشربها العواطف ، وان جاء الشعر على غير هذه الصور فهو كمسيح كذاب نبذه أوقى .

فيا آلهة الشعر ، يا ادانو ، اغتفري ذنوب الألى يقتربون منك بثرثرة كلامهم ولا يعبدونك بشرف أنفسهم وتخيلات أفكارهم .

ويا أرواح الشعراء الناظرة الينا من أعالي عالم الخلود ، ليس لنا عذر لتقدمنا من مذابح زينتموها بلآلىء افكاركم وجواهر أنفسكم سوى ان عصرنا هذا قد كثرت فيه قلقلة الحديد وضجيج المعامل فجاء شعرنا ثقيلاً ضخماً كالقطارات ومزعجاً كصفير البخار .

وأنتم أيها الشعراء الحقيقيون سامحونا ، فنحن من العالم الجديد نركض وراء الماديات ، فالشعر عندنا صار مادة تتناقلها الأيدي ولا تدري بها النفوس .

تحت الشمس

رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس
فاذا الكل باطل وقبض الريح
الجامعة

يا روح سليمان السابحة في فضاء عالم الأرواح ، يا من خلعت ثوب المـــادة الذي نحن نرتديه الآن ، لقد تركت وراءك هذا الكلام المنبثق من الضعف والقنوط فولّد ضعفاً وقنوطاً في أسرى الأجسام .

أنت تعلمين الآن ان في هـــذه الحياة معنى لا يخفيه الموت ، ولكن أنّى للبشر تلك المعرفة التي لا تدرك إلا بعد انعتاق النفس من ربقة التراب ؟

أنت تعلمين الآن ان الحياة ليست كقبض الريح ، وان ليس تحت الشمس شيء باطل ، بل كل شيء كان وسيبقى سائراً نحو الحقيقة ، ولكن نحن المساكين قد تشبثنا بأقوالك وتدبرناها ومـــا برحنا نظنها حكمة باهرة ، هي ، وأنت تعلمين ، ظلمة تضيع العاقلة وتخفي الأمل .

انت تعلمين الآن ان للحماقة والشر والظلم أسباباً جميلة ،

ونحن لا نرى جمالاً إلا بظواهر الحكمة ونتاج الفضيلة وثمار العدل .

أنت تعلمين ان الحزن والفقر يطهران القلب البشري، وعاقلتنا القاصرة لا ترى شيئاً حرياً بالوجود إلا اليسر والفرح .

أنت تعلمين الآن ان النفس سائرة نحو النور قهراً من عقبات العمر ، ونحن ما برحنا نردد كلامك الذي يدلُّ على أن الإنسان ليس إلا ألعوبة في يد القوة غير المعروفة .

أنت ندمت على بثك روحاً يضعف محبة الحياة الحاضرة ويميت الشغف بالحياة الآتية ، ونحن لم نزل مصرين على حفظ أقوالك .

يا روح سليمان الساكنة في عالم الخلود ، اوحي إلى محبي الحكمة ألا يسلكوا سبل القنوط والجحود ، فقد يكون ذلك كفّارةً عن خطإٍ غير مقصود .

نظرة إلى الآتي

من وراء جدران الحاضر سمعت تسابيح الانسانية . سمعت أصوات الأجراس تهز دقائق الأثير معلنة بدء الصلاة في معبد الجمال ، أجراس سبكتها القوة من معدن الشواعر ورفعتها فوق هيكلها المقدس ، القلب البشري .

من وراء المستقبل رأيت الجموع ساجدة على صدر الطبيعة ، متجهة نحو المشرق ، منتظرة فيض نور الصباح، صباح الحقيقة .

رأيت المدينة قد اندثرت ولم يبقَ من آثارها غير طلل بالٍ يخبر الرجال باندحار الظلمة أمام النور .

رأيت الشيوخ جالسين بظل أشجار الحور والصفصاف وقد جلس الصبيان حولهم يسمعون أخبار الأيام .

رأيت الفتيان يوقعون على القيثارة وينفخون في الناي والصبايا مسدولات الشعر يرقصن حولهم تحت أغصان الياسمين والفل .

رأيت الكهول يحصدون الزرع والنساء يحملن الأغمار ويترنمن بأناشيد أوحتها الغبطة والمسرة .

رأيت المرأة مستعيضة عن الملابس المشوّهة باكليل من الزنبق ومنطقة من أوراق الأشجار الغضة .

رأيت الالفة مستحكمة بين الانسان والمخلوقات ، فجماعات الطير والفراش تقترب منه آمنة وأسراب الغزلان تنثني نحو الغدير واثقة . نظرت فلم أرَ فقراً ولا مـا يزيد عن الكفاف ، بل الفيت الاخاء والمساواة ، ولم أرَ طبيباً ، إذ كلٌّ غدا طبيب ذاته بحكم المعرفة والاختبار ، ولم أرَ كاهناً ، لأن الضمير أصبح الكاهن الأعظم ، ولم أرَ محامياً ، لأن الطبيعة قامت بينهم مقام محكمة تسجل معاهدات الالفـة والوئام .

رأيت الانسان قد عـــلم انه حجر زاوية المخلوقات ، فترفّع عن الصغائر ، وتعالى عن الدنايا ، وكشف عن بصيرة النفس مناديل الالتباس ، فأصبحت تقرأ ما تكتبه الغيوم على وجه السماء ، وما ينمقه النسيم على صفحات الماء ، وتفقه كنه أنفاس الأزهار ، وتعرف معنى أغاني الشحارير والبلابل.

من وراء جدران الحاضر ، على مسرح الأجيال الآتية ، رأيت الجمال عريساً والنفس عروساً والحياة كلها ليلة القدر.

مَلِكَة الخيَال

بلغت خرائب تدمر وقد نهكني المسير ، فاستلقيت على أعشاب نبتت بين أعمدة سلها الدهر وأناخها إلى الحضيض فبانت كأنها أشلاء حرب هائلة ، وصرت أتأمل بعظائم أجلّها وهي مهدومة منقوضة عن صغائر قائمة عامرة .

ولما جاء الليل وتشاركت المخلوقات المتنابذة بارتداء ثوب السكينة شعرت بأن في الأثير المحيط بي سيالاً يضارع البخور عطراً ويعادل الخمر فعلاً ، فصرت أجرعه محكوماً وأحس بأيدٍ خفية تتساهم عاقلتي وتثقل جفني وتحل نفسي من سلاسلها . ثم مادت الأرض واهتزّ الفضاء فوثبت مدفوعاً بقوة سحرية ، فوجدتني في رياض لم يتخيلها بشر قط مصحوباً بحوق من العذارى لم يرتدين بغير الجمال ، يمشين حولي ولا تلمس أرجلهنّ الأعشاب وينشدن تسبيحة منسوجة من أحلام الحب ويضربن على قيثارات من العاج ذات اوتار ذهبية . ولما وصلت إلى منفرج قام في وسطه عرش مرصع بالجواهر بين مسارح تنسكب منها أنوار بلون قوس قزح ، وقفت العذارى على اليمين واليسار ورفعن أصواتهنّ عن ذي قبل ونظرن إلى جهة تنبعث منها رائحة

المر واللبان ، فإذا بملكية ظهرت من بين الأغصان الزاهرة ومشت ببطء نحو العرش واستوت فهبط عليه إذ ذاك سرب حمام كالثلج بياضاً واستقرّ حول قدميها بشكل هلال .

صار هذا والعذارى يغنين مجد المليكة سوراً ، والبخور يتصاعد لتكريمها أعمدة ، وأنا واقف أرى ما لم ترَ عين إنسان ، وأسمع ما لم تعه اذن بشري .

حينئذ أشارت المليكة بيدها فسكنت كل حركة ، ثم قالت وصوتها يهزّ نفسي مثلما تفعل يد الموقع بأوتار عوده ويؤثر بمجموع ذاك المحيط السحري كأنّ للأشياء آذاناً وأفئدة : دعوتك أيها الانسي وأنا ربة مسارح الخيال ، وحبوتك المثول أمامي وأنا مليكة غابة الأحلام ، فاسمع وصاياي وناد بها أمام البشر . قل ان مدينة الخيال عرس يخفر بابه مارد جبّار فلن يدخله الا من لبس ثياب العرس. قل : هي جنة يحرسها ملاك المحبة فلا ينظرها سوى من كان على جبهته وسم الحب . هي حقل تصورات ، أنهاره طيبة كالخمر ، وأطياره تسبح كالملائكة ، وأزهاره فاتحة العبير ، فلا يدوسه غير ابن الأحلام . خبّر الانس بأني وهبتهم كأساً يفعمها السرور فهرقوها بجهلهم فجاء ملاك الظلمة فملأها من عصير الحزن فجرعوها صرفاً وسكروا قل : لم يحسن الضرب على قيثارة الحياة غير الذين لمست أناملهم وشاحي ونظرت أعينهم عرشي ، فاشعيا نظم الحكمة

عقوداً بأسلاك محبتي ، ويوحنا روى رؤياه بلساني ، ولم يسلك دانتي مراتع الأرواح بغير أدلتي ، فأنا مجاز يعانق الحقيقة ، وحقيقة تبين وحدانية النفس ، وشاهد يزكي أعمال الآلهة . قل : ان للفكرة وطناً اسمى من عالم المرئيات لا تكدر سماءه غيوم السرور ، وان للتخيلات رسوماً كائنة في سماء الآلهة تنعكس على مرآة النفس ليعمّ رجاؤها بما سيكون بعد انعتاقها من الحياة الدنيا .

وجذبتني مليكة الخيال نحوها بنظرة سحرية وقبلت شفتيّ الملتهبتين وقالت : قل ومن لا يصرف الأيام على مسرح الاحلام كان عبد الايام .

عندئذ تصاعدت أصوات العذارى وارتفعت أعمدة البخور وحجبت الرؤية . ثم مادت الارض واهتز الفضاء فوجدتني بين تلك الخرائب المحزنة وقد ابتسم الفجر وبين لساني وشفتيّ هذه الكلمات : ومن لا يصرف الايام على مسرح الاحلام كان عبد الايام .

يـا لائِـمي

دعني يا لائمي ووحـدتي . استحلفك بحب يضم نفسك بجمال الرفيقة ويوثق قلبك بحنو الأم ويربط فؤادك بعواطف الابن ، ان تتركني وحالي .

خلني وشأني وأحلامي واصبر إلى الغد ، فالغد يقضي عليَّ بما يشاء .

محضتني النصح والنصح طيـف يسير بالنفس إلى مرتع الحيرة ويقودها إلى حيث الحياة جامدة كالتراب .

لي قلبٌ صغير اريد ان اخرجه من ظلمة صدري واحمله على كفي متفحصاً أعماقه ومستحكياً أسراره ، فلا تترصده يا لائمي بنبال مذاهبك مسبباً خوفه واختفاءه ضمن قفص الضلوع قبل ان يسكب دماء خفاياه ويقوم بفرض عقدته الآلهة عندما ابتدعته من الجمال والحب .

هنا قد طلعت الشمس وغرد الهزار والبلبل وتصاعدت أرواح الآس والمنثور وأنا أريد الانعتاق من لحف الكرى لأسير مع الحملان البيضاء ، فلا تعنـّفني يا لائمي ولا تخفني بأسد الغاب وصلّ الوادي ، لان نفسي لا تعرف الحزع ولا تنذر بالسوء قبل مجيئه .

دعني يا لائمي ولا تعظني ، لأن المصائب فتحت بصيرتي ، والدموع جلت بصري ، والحزن علمني لغة القلوب .

واعتزل ذكر المحرمات ، فلي من ضميري محكمة تقضي بالعدل عليّ وتقيني العقـاب ان كنت ذا براءة ، وتحرمني الثواب ان كنت من المجرمين .

ها قد سار موكب الحب فمشى الجمال رافعـاً أعلامه وسارت الشبيبة نافخة أبواق الفرح ، فلا تردعني يا لائمي ، بل دعني أسر فالطريق مفروشة بالورود والرياحين ، والهواء قد عطرته مجامر المسك .

اعتقني من حكاية المال وقصص المجد ، لأن نفسي غنية باكتفائها ومشغولة بمجد الآلهة .

اعفني من مآتي السياسة وأخبار السلطة ، لأن الأرض كلها وطني وجميع البشر مواطني .

مناجاة

أين أنتِ الآن يا جميلتي ؟ أفي تلك الجنة الصغيرة تسقين الأزهار التي تحبك محبة الاطفال ثدي أمها ، أم في خدرك حيث أقمتِ للطهر مذبحاً وقفتُ عليه روحي وحشاشتي ، أم بين كتبك تستزيدين من حكمة البشر وانت غنية بحكمة الآلهة ؟

أين أنت يا رفيقة نفسي ؟ أفي الهيكل تصلين من أجلي ، أم في الحقل تناجين الطبيعة مرتع اعجابك وأحلامك ، أم بين أكواخ المساكين تعزين منكسرات القلوب بحلاوة نفسك وتملأين أيديهنَّ باحسانك ؟

أنتِ في كل مكان ، لأنك من روح الله ، وفي كل زمان ، لأنك أقوى من الدهر .

هل تذكرين ليالي جمعتنا وشعاع نفسك يحيط بنا كالهالة وملائكة الحب تطوف حولنا مترنمة بأعمال الروح ، وتذكرين أيام جلسنا بظل الأغصان وهي مخيمة علينا كأنها تريد أن تحجبنا عن البشر مثلما تحجب الضلوع أسرار القلب المقدسة؟ هل تذكرين ممرات ومنحدرات ، مشينا عليها وأصابعك محبوكة بأصابعي احتباك ضفائرك ، وقد اسندنا رأسينا برأسينا

كأننا نختمي منا بنا؟ وهل تذكرين ساعة جئتك مودعاً فعانقتني ثم قبلتني قبلة مريمية علمت منها بأن الشفاه إذا انضمت جاءت بأسرار علوية لا يعرفها اللسان، قبلة كانت توطئة لتنهّدة مزدوجة حاكت نفساً نفخه الله في الطين فصار إنساناً. تلك تنهدة سبقتنا إلى عالم الأرواح معلنة مجد نفسينا، وهناك ستبقى حتى نجتمع بها الى الأبد...
ثم قبلتني وقبلتني وقلت والدمع يساعدك: إنّ للأجسام أغراضاً مجهولة، فهي تفترق لشؤون عالمية وتتباعد لمآرب دنيوية، أما الأرواح فتظل في قبضة الحب مستأمنة حتى يجيء الموت ويسير بها الى الله. اذهب يا حبيبي. لقد انتدبتك الحياة فأطعها، فهي حسناء تسقي مطيعيها من كوثر اللذة كؤوساً مفعمة، أما أنا فلي من حبك عريس ملازم، ومن ذكراك عرس طويل مبارك.

أين أنتِ الآن يا رفيقتي؟ هل أنتِ ساهرة في سكينة الليل نسيماً احمّله دقات قلبي وخفايا جوارحي كلما هب نحوك؟ أوَ أنت ناظرة رسم فتاك؟ ذاك رسم لم يعد ينطبق على مرسومه، فالحزن قد ألقى خياله على جبهة كانت بالأمس منفرجة بقربك، والنواح أذبل أجفاناً كانت مكحولة بجمالك، والوجد جفف ثغراً كان مرطباً بقبلاتك.

أين أنتِ يا حبيبتي؟ هل أنت سامعة من وراء البحار ندائي وانتحابي، وناظرة ضعفي ومذلتي، وعالمة بصبري

وتجلدي ؟ أوَ ليست في الهواء أرواح تنقل أنفاس محتضر متوجع ؟ أوَ لم تكن بين النفوس أسلاك خفيـــة تحمل شكوى محب دنف ؟

أين أنت يا حياتي ؟ لقد احتضنتني الظلمة وغلبني الأسى. ابتسمي في الهواء فأنتعش . تنفسي في الأثير فأحيا .

أين أنت يا حبيبتي أين أنت ؟
آه ما أعظم الحب وما أصغرني !

المجرم

على قارعة الطريق قعد شاب مستعطياً. فتى قوي الجسم أضعفه الجوع فجلس في منعطف الشارع مادّاً يده نحو العابرين متسولاً مستغيثاً بالمحسنين، مردداً آيات انكساره، شاكياً آلام جوعه.

خيم الليل وقد يبست شفتاه وكلّ لسانه ولم تزل يده فارغة مثل جوفه. فقام إذ ذاك وذهب الى خارج المدينه وجلس بين الاشجار وبكى بكاءً مرّاً. ثم رفع نحو السماء عينيه يغشاهما الدمع وقال والجوع يلقنه: يا رب قد ذهبت إلى الموسر أطلب عملاً، فطردت لرثاثة أثوابي. وطرقت باب المدرسة، فمنعت لفراغ يدي، ورمت الاستخدام ولو بكفاف يومي، فأبعدت لسوء طالعي. وأخيراً سعيت متسولاً، فرآني عبادك يا رب وقالوا هذا قوي نشيط والإحسان لا يجوز على ابن التواني والكسل. قد ولدتني أمي بإرادتك يا رب، وأنا كائن الآن بكيانك، فلماذا يمنع الناس الخبز عني وأنا طالب باسمك؟

في تلك الدقيقة تغيرت سحنة الرجل اليائس، فانتصب وقد لمعت عيناه كالشهب ثم اقتضب من الاغصان اليابسة

نبوتاً ضخماً وأشار به نحو المدينة وصرخ قائلاً : طلبت الحياة بعرق الجبين فلم أجدها ، فسوف أحصل عليها بقوة ساعدي . وسألت الخبز باسم المحبة فلم يسمعني الإنسان ، فسأطلبه باسم الشرّ وأستزيد منه ...

مرت الايام والشاب يقطع الاعناق من أجل الحصول على العقود ، ويهدم هياكل الارواح ان تصدت لمطامعه . فنمت ثروته وعم بطشه وصار محبوباً من لصوص القوم ومخيفاً لعقلائهم . ثم انتدبه الامير وكيلاً عنه في تلك المدينة شأن الامراء بانتقاء ممثليهم .

كذا يبتدع الانسان من المسكين سفاحاً باستمساكه ، ومن ابن السلام قاتلاً بقساوته .

الرّفيقة

أول نظرة

هي الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها . هي الشعلة الاولى التي تنير خلايا النفس . هي أول رنة سحرية على أول وتر من قيثارة القلب البشري . هي آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس أخبار الأيام الغابرة ، وتكشف لبصرها أعمال الليالي ، وتبين لبصيرتها اعمال الوجدان في هـــذا العالم ، وتبيح سر الخلود في العالم الآتي . هي نواة تطرحها عشتروت من العلاء ، فتلقيها العيون في حقل القلب ، فتستنبتهـــا العواطف ثم تستثمرها النفس . اول نظرة من الرفيقة تشابه الروح الذي كان يرف على وجه الغمر ومنه انبثقت السماء والارض اول نظرة من شريكة الحياة تحاكي قول الله : كن .

أول قبلة

هي الرشفة الاولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحب . هي الحد بين شك يراود القلب فيحزنه ويقين يفعمه فيغبطه . هي مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الاول من رواية

الانسان المعنوي . هي عروة توثق غرابة الماضي ببهـــاء الآتي ، وتجمع بين سكينة الشواعر وأغانيهـا . هي كلمة تقولها الشفاه الاربع معلنة صيرورة القلب عرشاً ، والحب مليكاً ، والوفاء تاجـاً . هي ملامسة لطيفة تحاكي مرور أنامل النسيم على ثغر زهرة الورد حاملة معها تنهداً مستطيلاً لذيذاً وأنة خفيفة عذبة . هي بدء اهتزازات سحرية تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية إلى عالم الوحي والأحلام . هي ضم زهرة الشقيق الى زهرة الجلنـــار ومزج أنفاسها لتوليد نفس ثالث ... وإذا كانت النظرة الاولى تشابه نواة القتها آلهة الحب في حقـل القلب البشري ، فالقبلة الاولى تحاكي أول زهرة في أطراف أول غصن في شجرة الحياة .

القران

هنا يبتدىء الحب ان ينظم نثر الحياة شعراً وينشيء من معاني العمر سُوَراً ترتلها الأيام وتنغمها الليالي . هنا يزيح الشوق ستائر الاشكال عن معميـات السنين المـاضية ويؤلف من نتف اللذات سعادة لا يفوقها غير سعادة النفس عندما تعانق ربهـــا . القران هو اتحاد ألوهيتين على ايجاد ألوهية ثالثة على الارض . هو تكاتف اثنين قويين بحبها لمقاومة دهر ضعيف ببغضه . هو تمازج خمرة صفراء برحيق قرمزي

لِتوْليدِ شَرَاب برتقاني[1] يُحَاكِي لَوْنَ الشُفقِ عِنْدَ مَجيءِ الفجر. هُو تَنَافرُ رُوحَيْن من التنافرِ واتحادِ نفسين مع الاتحادِ. هو حِلْقَةٌ ذَهبية مِنْ سلسلةٍ أولَها نظرةٌ، وآخرها اللانهاية. هو انهمالُ غيثٍ نقيّ من سماءٍ طاهرةٍ نحو طبيعةٍ مُقدّسَةٍ لاستخراج قُوَى حقولٍ مباركةٍ ... فإذا كانت النظرةُ الاولى من وجهِ المحبوبةِ مثل نَوَاةِ القتهـا المحبةَ في حقلِ القلبِ، والقُبلةَ الأولى من شَفَتَيْهَا تُشَابِهُ أول زهرةٍ في غُصْنِ الحياةِ، فالقَرَانُ بِهَا يُحَاكِي أوّلَ ثَمَرَةٍ مِنْ أولِ زهرةٍ مِنْ تِلْكَ النَوَاةِ..

(١) اللون البرتقالي يتولد كيماوياً من الاصفر والاحمر.

بَيْتُ السَّعَادَةِ

تَعِبَ قَلْبِي فِي دَاخِلِي فَوَدَّعَنِي وَذَهَبَ إِلَى بَيْتِ السَّعَادَةِ، وَلَمَّا بَلَغَ الْحَرَمَ الَّذِي قَدَّسَتْهُ النَّفْسُ وَقَفَ حَائِرًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَرَ هُنَاكَ مَا طَالَمَا تَوَهَّمَهُ. لَمْ يَرَ قُوَّةً، وَلَا مَالًا، لَا وَلَا سُلْطَةً. لَمْ يَرَ غَيْرَ فَتَى الْجَمَالِ وَرَفِيقَتِهِ ابْنَةَ الْحِكْمَةِ وَطِفْلَتَهُمَا الْمَحَبَّةِ.

وَخَاطَبَ قَلْبِي ابْنَةَ الْحِكْمَةِ قَائِلًا أَيْنَ الْقَنَاعَةُ أَيَّتُهَا الْمَحَبَّةُ، فَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّهَا تُشَاطِرُكُمْ سَكَنَ هَذَا الْمَكَانِ؟ قَالَتْ: ذَهَبَتِ الْقَنَاعَةُ تَتَكَرَّزُ فِي الْمَدِينَةِ حَيْثُ الْمَطَامِعُ، فَنَحْنُ لَا نَحْتَاجُ إِلَيْهَا. السَّعَادَةُ لَا تَبْتَغِي قَنَاعَةً، إِنَّمَا السَّعَادَةُ شَوْقٌ يُعَانِقُهُ الْوِصَالُ، وَالْقَنَاعَةُ سُلْوٌ يُسَاوِرُهُ النِّسْيَانُ. النَّفْسُ الْخَالِدَةُ لَا تَقْنَعُ، لِأَنَّهَا تَرُومُ الْكَمَالَ، وَالْكَمَالُ هُوَ اللَّانِهَايَةُ.

وَخَاطَبَ قَلْبِي فَتَى الْجَمَالِ قَائِلًا: أَرِنِي سِرَّ الْمَرْأَةِ أَيُّهَا الْجَمَالُ، وَأَرِنِّي لِأَنَّكَ مَعْرِفَةٌ. فَقَالَ: هِيَ أَنْتَ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْبَشَرِيُّ وَكَيْفَمَا كُنْتَ كَانَتْ. هِيَ أَنَا وَأَيْنَمَا حَلَلْتَ حَلَلْتُ. هِيَ كَالدِّينِ إِذَا لَمْ يُحَرِّفْهُ الْجَاهِلُونَ، وَكَالْبَدْرِ إِذَا لَمْ تَحْجُبْهُ الْغُيُومُ، وَكَالنَّسِيمِ إِذَا لَمْ تَتَعَلَّقْ بِأَذْيَالِهِ أَنْفَاسُ الْفَسَادِ.

وَاقْتَرَبَ قَلْبِي مِنَ الْحِكْمَةِ ابْنَةِ الْمَحَبَّةِ وَالْجَمَالِ وَقَالَ: أَعْطِينِي حِكْمَةً أَحْمِلُهَا إِلَى الْبَشَرِ. فَأَجَابَتْ: قُلْ هِيَ السَّعَادَةُ تَبْتَدِئُ فِي قُدْسِ أَقْدَاسِ النَّفْسِ وَلَا تَأْتِي مِنَ الْخَارِجِ.

مدينة الماضي

١

وقفت بي الحياة على سفح جبل الشباب وأومأت الى الوراء . فنظرت ، فإذا بمدينة غريبة الشكل والرسوم متربعة في صدر سهول تتموج فيها الأخيلة والأبخرة المتلونة متوشحة بقناع ضباب لطيف يكاد يحجبها .

قلت : ما هذه أيتها الحياة ؟ قالت : هي مدينة الماضي فتأمل !

فتأملت ورأيت .

معاهد أعمال جالسة كالجبابرة تحت أجنحة النوم . مساجد أقوال تحوم حولها أرواح صارخة صراخ القنوط ، مترنمة ترنيمة الأمل . هياكل أديان أقامها اليقين ثم هدمها الشك . مآذن افكار مرتفعة نحو العلو كأنها أيدي المتسولين . شوارع ميول منبسطة انبساط النهر بين الربى . مخازن أسرار حرسها الكتمان فسرقتها لصوص الاستعلام . أبراج اقدام بنتها الشجاعة فثلثها المخاوف . صروح أحلام زينتها الليالي وخربتها اليقظة . أكواخ صغار سكنها الضعف ، وجوامع وحدة قام فيها نكران الذات . نوادي معارف

أنارها العقل فأظلمها الجهل . حانات محبة سكر بها العشاق فاستهزأ بهم الخلو . مسارح اعمار مثلت عليها الحياة رواياتها ثم جاء الموت وختم مأساته .

تلك مدينة الماضي فهي بعيدة قريبة ، منظورة محجوبة .

ومشت الحياة امامي وقالت : اتبعني فقد طـــال بنا الوقوف : قلت : الى اين أيتهـا الحياة ؟ قالت الى مدينة المستقبل . قلت : رفقاً فقد نهكني المسير وكلت قدميّ الصخور وهدت قواي العقبـــات . قالت : سر فالوقوف جبانة والنظر الى مدينة الماضي جهالة .

اللّقـــاء

عندمـا أكمل الليل تنميق ثوب السماء بجواهر النجوم تصاعدت من وادي النيـل حورية محفوفة بأجنحة غـير منظورة . وجلست على عرش من الغيوم مرتفع فوق بحر الروم مفضضٍ من اشعة القمر ، فمرَّ من أمامها جوق أرواح سابحة في الفضاء صارخة : قدوس ، قدوس ، قدوس ابنة مصر ، مجدها ملء كل الارض .

وتصاعد من أعالي فم الميزاب المحيط بغابة الأرز طيف فتىً مكتنفاً بأيدي الساروفيم وجلس على العرش بقرب الحورية فعادت الارواح ومرَّت من امامها هاتفة : قدوس ، قدوس ، قدوس فتى لبنان ، مجده ملء كل الدهور .

ولما أخذ المحب يد حبيبته ونظر الى عينيها حملت الرياح والامواج هذه المناجاة إلى جميع الاقطار :

ما أكمل بهاكِ يا ابنة ايسس وما اعظم حبي لك !

مـا أجملك بـين الفتيان يا ابن عشتروت وما أكثر شوقي اليك !

محبتي نظير أهرامك فلا تهدمها الاجيال يا حبيبتي .

محبتي تحاكي أرزك فلن تغلبها العناصر يا حبيبي .

حكماء الامم يأتون من المشرق والمغرب ليستحكموا حكمتك ويستفسروا رموزك يا حبيبتي .

عظماء الارض يجيئون من الممالك ليسكروا من رحيق جمالك وسحر معانيك يا حبيبي .

انّ راحتيك منبت خيرات غزيرة تملأ الاهراء يا حبيبتي.

انّ ذراعيك منبع المياه العذبة ، وأنفاسك نسيمات منعشة يا حبيبي .

قصور النيل وهياكله تذيع مجدكِ وأبو الهول يحدث بعظمتك يا حبيبتي .

الارز على صدركَ وسام شرف أثيل ، والابراج حولك تروي بطشك واقتدارك يا حبيبي .

آه ما أميلح محبتكِ وما أحيلى الامل المناط بارتقائك يا حبيبتي .

آه ما أكرمك خليلاً ، وأوفاك حليلاً ، وما أجل هداياك وأنفس عطاياك ! بعثت اليّ بالفتيان فكانوا يقظة بعد نوم عميق . أتحفتني « بالفارس » فغلب ضعف قومي ، وحبوتني « بالاديب » فأنهضهم و « بالنجيب » فأثلهم ...

بعثت اليك بالبذور فصيرتها أزهاراً ، وبالانصاب فجعلتها أشجاراً ، فأنت حقل بكر يحيي الورد والسوسن ويرفع السرو والارز ...

أرى بعينيك حزناً يا حبيبي ، أتحزن وأنت بقربي ؟

لي أبناء رحلوا الى ما وراء البحار وخلفوني حليف بكاء وأليف شوق .

ليت لي ما يشابه حزنكَ وتنصرف عني مخاوفي يا حبيبي .

أتخافين يا ابنة النيل وانت عزيزة الأمم ؟

أخاف من طاغية تقترب مني بحلاوة روغها وتمتلك أعنتي بقوة ساعديها .

انّ حياة الامم يا حبيبتي مثل حياة الافراد ، حياة يؤآخيها الامل ، ويقارنها الخوف ، وتحف بها الاماني ، ويرمقها القنوط .

وتعانق الحبيبان وشربا من كؤوس القبل رحيقاً عاطراً ، فمرت اجواق الارواق منشدة : قدوس ، قدوس ، قدوس ، المحبة مجدها ملء السماء والارض .

مخبآت الصدور

في صرح فخيم واقف تحت جنح الليل وقوف الحياة بين ستائر الموت جلست صبية بقرب منضدة عاجية تسند رأسها الجميل بيدها مثلما تتكىء زنبقة ذابلة على أوراقها ، وتنظر إلى ما حولها نظرات سجين يائس يريد ان يخرق بعينيه جدران حبسه ليرى الحياة السائرة في موكب الحرية .

مرت الساعات مرور أشباح الظلمة ، وتلك الصبية مستأنسة بدموعها ، مستأمنة بانفرادها ولوعتها ، حتى إذا ما اشتدت على قلبها وطأة عواطفها وامتلكت شواعرها خزائن أسرارها تناولت قلماً وأخذت تمزج على صفحات الورق قطرات الحبر بدموعها وتجمع بين الكلام ومكنونات نفسها . وهاك ما كتبت :

أيتها الاخت المحبوبة !

عندما يضيق القلب بأسراره ، وتتقرح الأجفان من حرارة دموعها ، وتكاد الضلوع تتمزق من نمو مخبآت الصدور ، لا يجد المرء غير الكلام والشكوى . فالحزين يا

صديقتي يستعذب الشكوى . يجد المحب تعزية بالتشبب ، والمظلوم لذة بالاسترحام ... فأنا اكتب إليك الآن لأنني أصبحت كشاعر يرى جمال الأشياء فينظم تأثيرات ذلك الجمال محكوماً بقوة ألوهيته ، أو كطفل الفقير الجائع يستغيث مدفوعاً بمرارة جوعه غير راحم فاقة أمه وانكسارها .

اسمعي قصتي الموجعة يا اختي وابكي من أجلي ، لأن البكاء كالصلاة ، ودموع الشفقة كالإحسان لا تذهب سدى ، لأنها متصاعدة من أعماق نفس حية شاعرة ... شاء والدي وجمع بالقران بيني وبين رجل شريف غني شأن كل والد غني شريف يروم تعزيز المال بالمال مخافة الفقر وضم الشرف إلى الشرف هرباً من ذل الأيام .

فكنت مع عواطفي وأحلامي ضحية على مذبح ذهب أحتقره وشرف موروث أكرهه ، وفريسة ترتعد بين أظافر المادة التي إذا لم تكن خادمة مطيعة للروح كانت أقسى من الموت وأمرّ من الهاوية . أنا أعتبر بعلي لأنه كريم الخلق ، شريف القلب ، يجهد النفس في سبيل سعادتي ، ويبذل المال لرضاي ، ولكنني وجدت تأثير هذه الأشياء كلها لا يساوي دقيقة محبة حقيقية مقدسة ، تلك المحبة التي تستصغر كل شيء وتبقى عظيمة ...

لا تسخري بي يا رفيقتي ، فأنا الآن أعلم الناس بحاجات قلب المرأة ، هذا القلب الخفوق ، هذا الطائر السابح في فضاء المحبة ، هذا الإناء الطافح من خمرة الدهور المعدة لمراشف الأرواح ، هذا الكتاب المطبوعة فيه فصول السعادة والشقاء ، واللذة والألم ، والمسرة والأحزان ، فلا يقرأه إلا الرفيق الحقيقي نصف المرأة المخلوق لها منذ الأزل والى الأبد ... نعم صرت أدرى النساء بأغراض النفس وميول القلب عندما وجدت ان خيول بعلي المطهمة ومركباته البديعة وخزائنه الطافحة وشرفه الرفيع لا تساوي نظرة واحدة من عيني ذلك الفتى الفقير الذي جاء هذه الحياة من أجلي وجئت من أجله ، ذلك الصابر على مضض البلوى وذل التفريق ، ذلك المظلوم عفواً بإرادة والدي ، والمسجون بلا إثم في ظلمة العمر ... إياك يا صديقتي محاولة تعزيتي ، لأن لي من مصائبي معزياً ، هو إدراكي قوة حبي ، ومعرفتي شرف شوقي وحنيني ، فأنا أنظر الآن من وراء الدموع فأرى المنية تقترب مني يوماً فيوماً لتقودني الى حيث انتظر رفيق نفسي والتقي به وأعانقه عناقاً طويلاً مقدساً . ولا تلوميني ، فأنا قائمة بواجبات الزوجة الأمينة خاضعة لأحكام الشرائع البشرية بتجلد وهدوء ، اكرم بعلي بعاقلتي ، وأعتبره بقلبي ، وأجله بنفسي ، ولا يمكنني أن أهبه كليتي ، لأن الله أعطاها لحبيبي قبل معرفتي حبيبي ، شاءت السماء لحكمة خفية أن أصرف العمر مع

رجل خلقت لغيره فأنا أنفق هـــذا العمر حسب مشيئة السماء ، بسكينة ولكن إذا مـــا انفتحت أبواب الأبدية التحمت بنصف نفسي الجميل ونظرت الى الماضي ، وذاك الماضي هو هذا الآن ، نظرة الربيع الى الشتاء . وتأملت حياتي هذه مثلما يتأمل العقبات من بلغ قمة الجبل .

هنا وقفت تلك الصبية عن الكتابة ، وحجبت وجهها بيديها ، وبكت بكاءً مرّاً ، كأن نفسها الكبيرة أبت أن تسلم أقدس أسرارها إلى الورق ، فأعطتها لدموع سخية تجفّ بسرعة وتمتزج بالأثير اللطيف موطن أنفاس المحبين وأرواح الأزهار . وبعد هنيهة أخذت القلم وكتبت : هل تذكرين يا صديقتي ذلك الفتى ؟ هـــل تذكرين تلك الأشعة المنبعثة من عينيه وتلك الأحزان المرسومة على جبينه ؟ هل تذكرين ابتسامة المشابه دموع الثكلى ؟ هل تذكرين صوته المحاكي صدى الوادي البعيد ؟ هل تذكرينه إذ كان يتأمل الاشياء بنظرات طويلة هادئة ، ثم يتكلم عنهـــا بغرابة ، ثم يحني رأسه ويتنهد كأنه يخاف ان يشف حديثه عن خفايا قلبه الكبير ؟ وهل تذكرين أحلامه وعقائده ؟ هـــل تذكرين كل هذه الاشياء في فتى يحسبه البشر من البشر ويحتقره والدي لانه أسمى من المطـــامع الترابية وأشرف من أن يرث الشرف عن الجدود ؟ اي يا اختي أنت تعلمين انني شهيدة صغائر هذا العالم وضحية الغباوة

وترحمين أختاً ساهرة في سكينة الليل المخيف لتكشف لك ستائر صدرهـــا عن اسرار قلبها . أنت ترحمين لان الحب قد زار قلبك .

جاء الصباح فقـــامت تلك الصبية راستسلمت للكرى علها تجد فيه أحلاماً ألطف من أحلام اليقظة ...

القوّة العمياء

جاء الربيع وتكلمت الطبيعة بألسنة السواقي ففرّحت القلب . وابتسمت بشفاه الازهـــار فأسعدت النفس . ثم غضبت ودكت المدينة الجميلة فانست الانسان عذوبة كلماتها ورقة ابتساماتها . قوة عمياء مخيفة نقضت بساعة ما أقامته الاجيال . موت ظلوم قبض بأظافره المحددة على الاعناق فسحقها بقساوة . نار آكلة التهمت الأرزاق والاعمار . ليل قاتم اخفى جمال الحياة تحت لحف الرماد . عناصر هائلة هبت من مرابضها وقـــاتلت الانسان الضعيف وخربت مساكنه وذرت بسرعة مـــا جمعه بالتأني . زلزال عنيف حبلت به الارض فتمخضت متوجعة ولم تلد غير الخراب والشقاء .

جرى كل ذلك والنفس الحزينة ناظرة من بعيد تتأمل وتتألم . تتأمل بمقدرة الانسان المحدودة تجـــاه القوى غير العاقلة ، وتتألم مع المصابين الهاربين من النار والدمار . تتأمل بأعداء ابن آدم الكامنة له تحت أطباق الثرى وبين دقائق الاثير ، وتتألم مع الوالدات النائحات والاطفـــال الجائعين . تتأمل بقساوة المادة واستصغارها الحياة العزيزة ،

وتتألم مع الذين رقدوا بالأمس مستأمنين في منـــازلهم فأصبحوا اليوم واقفين عن بعد يرثون المدينة الجميلة بغصات مؤلمة وعبرات مرة . تتأمل بكيفية انقلاب الأمل يأساً ، والفرح حزناً ، والراحة عذاباً ، وتتألم مع قلوب ترتعد بين مخالب اليأس والحزن والعذاب .

كذا وقفت النفس بين التأمل والتألم تنقـــاد تارة الى الشك بعدالة النواميس الرابطة القوات بعضها دون الآخر ، وتعود طوراً فتهمس في آذان السكينة قائلة : ان من وراء الكائنات حكمة سرمدية تبتدع من كوارث ونوازل نراها محاسن نتائج لا نراها . فالنار والزلازل والعواصف من جسم الارض بمـــكان البغض والحقد والشر في القلب البشري تثور وتضج ثم تخمد ، ومن ثورتها وضجيجهـــا وخمودها تبتدع الآلهة معرفة جميلة يبتاعها الانسان بدمعه ودمه وأرزاقه .

أوقفتني الذكرى ونكبة هذه الامة تملأ الاسمـــاع أنة وعويلاً ، وصورت أمام عينيَّ كل ما مرَّ على مسرح الايام الغابرة من العبر والخطوب . فرأيت الانسان في كل أدواره يقيم على صدر الارض البروج والقصور والهياكل ، والارض ترجعها الى قلبها . رأيت الاشداء يشيدون المباني القوية ، والنحاتين يختلقون من الصخور صوراً وأشباحاً ، والرسامين يزينون الجدران والمداخـــل بالنقوش والنسيج . ثم رأيت

هذه اليابسة تفغر فاهـــا وتبتلع بخشونة ما الفته الأيدي المتفننة والعقول الراجحة ، ماحية بقساوتها ظواهر الصور والأشباح ، مدمرة بسخطها خطوط الرسوم والنقوش ، دافنة بعنفها فخامة الدعائم والجدران ، ممثلة دور حسناء مستغنية عن الحلى التي يصوغهـــا ابن آدم ، مستكفية بحلل المروج الخضراء المزركشة بذهب الرمال وجواهر الحصى ...

على انني وجـــدت بين هذه النكبات المخيفة والرزايا الهائلة ألوهية الانسان واقفة كالجبار تسخر بحماقة الارض وغضب العناصر ، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتل أنشودة الخلود قائلة : لتأخذ الارض مالها فلا نهاية لي .

منيتان

في سكينة الليل هبط الموت من لدن الله نحو المدينة النائمه واستقر على أعلى مئذنة فيها وخرق بعينيه النيرتين جدران المساكن ورأى الارواح المحمولة على اجنحة الأحلام والأجساد المحكومة بفاعيل الكرى .

ولما توارى القمر وراء الشفق وتوشحت المدينة بنقاب الخيال سار الموت بقدم هادئة بين المساكن حتى بلغ صرح القوي الغني ، فدخل ولم تصده الحواجز ، ووقف يجنب سريره ثم لمس جبينه فانذعر من غفلته ، ولما رأى خيال الموت أمامه صرخ بصوت تجسّمت فيه عوامل الحنق والخوف وقال : ابعد عني ايها الحلم المخيف . اذهب أيها الخيال الشرير . كيف دخلت أيها السارق وماذا تروم أيها الخاطف ؟ اذهب فأنا ربّ البيت . اذهب وإلا ناديت العبيد والحراس فيمزقونك إرباً .

حينئذ اقترب الموت ، وبصوت يحاكي الرعد قال : أنا هو الموت فانتبه واعتبر ! فأجاب القوي الموسر : ماذا تريد مني الآن وماذا تطلب ؟ لماذا جئت وأنا لم أنهِ أعمالي بعد ؟ ماذا تطلب من الاقوياء نظيري ؟ اذهب الى السقماء .

اغرب عني ولا ترني أظافرك الجارحة وشعرك المسدول كالأفاعي . رح فقد سئمت النظر الى جناحيك الهائلين وجسدك البالي . وبعد سكينة مزعجة زاد : لا لا أيها الموت الرؤوف ، لا تحفل بما قلته ، فالخوف يوحي ما يحرمه القلب ، خذ مكيالاً من ذهبي أو قبضة من أرواح عبيدي واتركني وشأني ... لي يا موت مع الحياة حساب لم انهه ومع الناس مال لم استوفه . لي بين أمواج البحر مراكب لم تصل الى الساحل ، وفي قلب الارض غلة لم تنبت . خذ ما شئت من هذه الاشياء واتركني . لي جوارٍ كالصباح جمالاً فاختر منهن ما تريد . اسمع أيها الموت : لي وحيد احبه وهو عقدة آمالي ، خذه واتركني . خذ ما تشاء . خذ كل شيء واتركني .

حينئذ وضع الموت يده على فم عبد الحياة الترابية وأخذ حقيقته وأعطاها للهواء .

سار الموت بين أحياء الفقراء الضعفاء حتى بلغ بيتاً حقيراً فدخله واقترب من سرير عليه فتى في ربيع العمر ، وبعد ان تأمل وجهه الهادىء لمس عينيه فاستيقظ ، ولما رأى الموت واقفاً بجانبه جثا على ركبتيه ورفع ذراعيه نحوه وقال بصوت اودعه كل ما في نفسه من المحبة والشوق : هاءنذا أيها الموت الجميل ، اقتبل نفسي يا حقيقة أحلامي وموضوع آمالي ! ضمني يا حبيب نفسي ، فأنت

رحوم ، لا تتركني ههنا . أنت رسول الالهة ، أنت يمين الحق ، فلا تتخلّ عني ، كم طلبتك ولم أجدك ، وكم ناديتك ولم تسمع . قد سمعتني الآن ، فلا تقابل شغفي بالصدود . عانق نفسي يا حبيبي الموت .

وضع الموت إذ ذاك أنامله اللطيفة على شفتي الفتى وأخذ حقيقته ووضعها تحت جناحيه .

ولما حلق الموت في الجو نظر نحو هذا العالم ونفخ في الهواء هذه الكلمات : لن يرجع الى الأبدية إلاّ من جاء من الأبدية .

على ملعب الدهر

ودقيقة تراوح بين تأثيرات الجمال وأحلام الحب لهي أسمى وأثمن من جيل ملأه المجد الذي يمنحه الضعيف المسكين للقوي الطامع .

من تلك الدقيقة تنبثق ألوهية الإنسان ، وفي ذاك الجيل تنام نوماً عميقاً مكتنفة ببراقع أحلام مزعجة . في تلك الدقيقة تتحرر النفس من اعباء شرائع الإنسان المتباينة ، وفي ذاك الجيل تحبس وراء جدران الاهمال مثقلة بقيود الظلم . تلك الدقيقة كانت مهد نشيد سليمان وموعظة الجبل وتائية الفارض ، وذاك الجيل كان القوة العمياء التي هدمت هياكل بعلبك ودكت مباني تدمر وسحقت بروج بابل .

ويوم صرفته النفس آسفة على موت حقوق الفقير ، متأوهة على فقدان العدل ، لهو أجلُّ وأفضل من عمر يضيعه الإنسان مسروراً على مائدة الشهوات ، مستسلماً لقضاء الأنانية . ذاك يوم يطهر القلب بناره ويفعمه بنوره ، وذا عمر يخيم عليه يجنحه القاتم ويلحده طي طبقات التراب . ذاك يوم كان يوم العبر ، ويوم الجلجلة ، ويوم الهجرة ، وذا عمر أنفقه نيرون في سوق المظالم ، ووقفه

قارون على مذبح المطامع ، وطمره دون جوان في قبر الجسديات .

وهذه هي الحياة ، تمثلها الليالي على ملعب الدهر نظير مأساة ، وتنشدها الأيام كأغنية ، وفي النهاية تحفظها الأبدية كجوهرة ...

خليلي

لو علمت ، يا خليلي الفقير ، ان الفاقة التي تقضي عليك بالشقاء هي هي التي توحي إليك معرفة العدل وتبثك ادراك كنه الحياة ، لرضيت بقسمة الله . قلت : معرفة العدل ، لأن الغني مشغول عن تلك المعرفة بخزائنه . وقلت: كنه الحياة ، لأن القوي منصرف عنها إلى المجد . فافرح إذن بالعدل ، لأنك لسانه ، وبالحياة ، لأنك كتابها . وابتهج، فأنت مصدر فضيلة عاضديك وعاضد فضيلة الآخذين بيدك .

ولو دريت يا حبيبي الحزين ان الارزاء التي أصبحت مغلوبها هي تلك القوة التي تنير القلب وترفع النفس من دركات الاستهزاء إلى درجات الاعتبار لقنعت بها ارثاً ، وبتأثيراتها مهذباً ، وعلمت ان الحياة سلسلة ذات حلقات آخذة بعضها برقاب البعض ، وان الحزن حلقة ذهبية تفصل بين الاستسلام لمآتي الحاضر والتعلل ببهجة الآتي ، كما يفصل الصبح بين النوم واليقظة .

خليلي ، ان الفقر يظهر شرف النفس ، والغنى يبين لؤمها ، والحزن يلطف العواطف ، والسرور يدملها ، لأن

الإنسان ما برح يستخدم المال والسرور توصلاً للازدياد ، مثلما يفعل باسم الكتاب شرّاً ينزه عنه الكتاب ، وباسم الانسانية ما تأباه الانسانية .

لو باد الفقر ونأى الحزن لأصبحت النفس صحيفة خالية إلاّ من أرقام تدل على الانانية ومحبة الاكثار ، والفاظ مفادها الشهوات الترابية ، لأني نظرت فوجدت الألوهية ، وهي الذات المعنوية في الانسان ، لا تباع بالمال ولا تنمو بمسرات فتيان العصر ، وتأملت فرأيت الغني ينبذ الوهيته ويحرص على أمواله ، وفتى العصر يغادرها ويتبع ملذاته .

ان الساعة التي تصرفها ، أيها الفقير ، مع رفيقتك وصغارك بعد مجيئك من الحقل لهي رمز العائلة البشرية المستقبلة ، هي عنوان سعادة الأجيال الآتية ، والحياة التي يصرفها المثري بين الخزائن لهي حياة دنية تحاكي حياة الدود في القبور ، هي رمز الخوف .

والدموع التي تذرفها ، أيها الحزين ، هي أعذب من ضحك المتناسي وأحلى من قهقهة المستهزىء . تلك دموع تغسل القلب من ادران البغض وتعلم ذارفها كيف يشارك منكسري القلب بشواعره ، هي دموع الناصري .

ان القوة التي زرعتها ، أيها الفقير ، واستغلها الغني

القوي سوف تعود إليك ، لان الأشياء ترجع إلى مصادرها بحكم الطبيعة ، والأسى الذي عانيته ، ايها الحزين ينقلب فرحاً بحكم السماء .

سوف تتعلم الاجيال الآتية المساواة من الفقر ، والمحبة من الأحزان .

حديث الحُبّ

في بيت منفرد جلس فتىً في صبح الحياة ينظر آناً من النافذة إلى السماء المزدانة بالكواكب ، وآونة الى رسم صبية بين يديه . رسم تنعكس خطوطه وألوانه على وجهه ، فتظهر عليه أسرار هذا العالم وخفايا الابدية . صورة ملامح امرأة تناجيه جاعلة عينيه آذاناً تفقه لغة الارواح السابحة في فضاء تلك الغرفة ومبتدعة من مجموعه قلوباً أثارها الحب وأفعمها الشوق .

كذا مرت ساعة ، كأنها دقيقة أحلام مستحبة أو عام من حياة البقاء ، ثم وضع الفتى الرسم أمامه وأخذ قلماً وورقة وكتب :

يا حبيبة نفسي !

ان الحقائق العظيمة الفائقة الطبيعة لا تنتقل من بشريّ إلى آخر بواسطة الكلام البشري المتعارف ، لكنها تختار السكينة سبيلاً بين النفوس . وأنا أشعر بأن سكينة هذا الليل تسعى بين نفسينا حاملة رسائل أرق من تلك التي يكتبها النسيم على وجه الماء ، تالية كتاب قلبينا على قلبينا ،

ولكن مثلما شاء الله فجعل النفوس في اسر الاجسام شاء الحب فجعلني اسير الكلام ... يقولون يا حبيبتي ان الحب ينقلب بالعباد نار آكلة ، وانا وجدت ان ساعة الفراق لم تقوَ على فصل ذاتينا المعنويتين ، مثلما علمت عند اول لقاء ان نفسي تعرفك منذ دهور ، وان اول نظرة اليك لم تكن بالحقيقة اول نظرة ... يا حبيبتي ، ان تلك الساعة التي جمعت قلبينا المنفيين عن العالم العلوي هي من ساعات قليلة تدعم اعتقادي بأزلية النفس وخلودها . في مثل تلك الساعة تكشف الطبيعة القناع عن وجه عدلها المتناهي والمظنون به ظلماً...

هل تذكرين يا حبيبتي ذاك الروض ، حيث وقفنا وكلانا ناظر وجه حبيبه ؟ وهل تعلمين ان نظراتك كانت تقول لي ان محبتك لي لم تنبثق من الشفقة عليّ ؟ تلك النظرات التي علمتني ان اقول لذاتي وللعالمين ان العطاء الذي يكون مصدره العدل لهو اعظم من الذي يبتديء من الحسنة ، وان المحبة التي تبتدعها الظروف تشابه مياه المستنقعات .

امامي يا حبيبتي حياة اريدها ان تكون عظيمة وجميلة . حياة تؤاخي ذكر الإنسان الآتي وتستدعي اعتباره ومحبته . حياة قد ابتدأت عندما لقيتك وانا واثق بخلودها ، لأني مؤمن بكونك قادرة على اظهار القوة التي اودعني الله إياها متجسمة بأقوال واعمال كبيرة، مثلما تستنبت الشمس ازهار الحقل ذات العرف الطيب ، وكذا تظل محبتي لي

وللأجيال ، وتبقى منزهة عن الأنانية لتعميمها ، ومتعالية عن الابتذال لتخصيصها بك .

وقام الفتى ومشى بتمهل في تلك الغرفة ، ثم نظر من النافذة ورأى القمر قد طلع من وراء الأفق وملأ الفضاء أشعة لطيفة ، فرجع وكتب في تلك الرسالة :

سامحيني يا حبيبتي فقد ناجيتك بضمير المخاطب وأنت نصفي الجميل الذي فقدته عندما خرجنا من يد الله في آن واحد ، سامحيني يا حبيبتي .

الحيوان الأبكم

وفي نظرات الحيوان الابكم
كلام تفهمه نفس الحكيم
شاعر هندي

في عشية يوم تغلبت فيه تخيلاتي على عاقلتي مررت بأطراف أحياء المدينة ووقفت أمام منزل مهجور تداعت أركانه وحطت دعائمه ولم يبقَ منه سوى اثر يخبر عن هجر طويل ويدل على زوال محزن. فرأيت كلباً يتوسد الرماد وقد ملأت القروح جسمه الضعيف واستحكمت العلل بهيكله المهزول، فصار يرمق الشمس الجانحة نحو الغروب بعين وسمت عليها أشباح الذل وبدت فيها مظاهر القنوط واليأس فكأنه درى بأن الشمس قد أخذت تسترجع حرارة انفاسها عن تلك البقعة المهجورة البعيدة عن الاولاد مضطهدي الحيوان الضعيف، فصار يرمقها بعين آسفة مودعة. فاقتربت منه على مهل وادّاً لو عرفت النطق بلسانه فأعزيه في شدائده وابدي له شفقة في بؤسه، ولما دنوت منه خافني وتحرك ببقايا حياة قاربت الانحلال مستنجداً بقوائم شلتها العلة وراقبها الفناء. واذا لم يقوَ على النهوض

نظر اليّ نظرة فيها مرارة استرحام وحلاوة استعطاف، نظرة فيها انعطاف وملامة، نظرة قامت مقام النطق، فكانت أفصح من لسان الانسان وابلغ من دموع المرأة. ولما تلاقت عيناي بعينيه الحزينتين تحركت عواطفي وتمايلت تأثراتي فجسمت تلك النظرات وابتدعت لها اجساداً من كلام متعارف بين البشر. نظرات مفادها: كفى ما بي يا هذا، وكفى ما عانيت من اضطهاد الناس، وما قاسيت من الم الامراض. امض واتركني وسكينتي أستمد من حرارة الشمس دقائق الحياة، فقد هربت من مظالم ابن آدم وقسوته والتجأت الى رماد اكثر نعومة من قلبه واختبأت بين خرائب أقل وحشة من نفسه. اذهب عني، فما انت الا من سكان أرض ما برحت ناقصة الاحكام، خالية من العدل... أنا حيوان حقير لكنني خدمت ابن آدم وكنت في منزله مخلصاً ووفيّاً، وفي رفقته متربصاً وجاسوساً. كنت شريكاً في أحزانه، ومغتبطاً في افراحه متذكراً أيام بعده، مرحباً عند مجيئه، وكنت اكتفي بفتات مائدته وأسعد بعظم جرّده بأضراسه. ولكن لما شخت وهرمت وأنشبت الامراض في جسمي أظافرها نبذني وأبعدني عن داره وصيرني ملعبة لصبيان الازقة القساة، وهدفاً لنبال العلل، ومحطّاً لرحال الأقذار. أنا، يا ابن آدم، حيوان ضعيف، لكني وجدت نسبة كائنة بيني وبين الكثيرين من اخوانك البشر الذين اذا ما ضعفت قواهم قلّ رزقهم

وساء حالهم . أنا مثل جنود يحاربون عن الوطن في شبيبتهم ويستثمرون الارض في كهولتهم ، حتى اذا ما جاء شتاء الحياة وقلّ نفعهم ابعدوهم ونسوهم . انا مثل امرأة تجملت صبية لتفريح قلب الشبيبة ، وسهرت زوجة في الليالي لتربية الاطفال ، وتعبت امرأة لإيجاد رجال المستقبل ، ولكن لما شاخت وعجزت أصبحت نسياً منسياً وأمراً مكروهاً ... آه ما أظلمك يا ابن آدم وما أقساك !

كانت نظرات ذلك الحيوان تتكلم وقلبي يفهم ونفسي تراوح بين شفقتي عليه وتصوراتي بابناء بجدتي . ولما اغمض عينيه لم اشأ ازعاجه فذهبت ...

السِّلْم

سكنت العاصفة بعد أن لوت الأغصان وحنت الزروع، وبانت النجوم كأنها بقايا البرق المتكسرة على أديم السماء، وسكنت تلك الحقول كأن حرب العناصر لم تكن.

في تلك الساعة دخلت الصبية مرقدهـــا وجثت على سريرها وبكت بكاءً مرّاً، ثم تصاعدت زفراتها وتجسمت أنفاسها الحارة بهذه الكلمات: رده إليّ يا ربّ، فقد جفت دموعي وذابت حشاشتي. ارجعه ايها الروح القاضي بحكمة تسمو عن نهى الإنسان، فقد جفاني التجلد وتحكم بي الأسى. خلصه من بين مخالب الحرب المحـــددة. انقذه من الموت القاسي وارحمه فتىً ضعيفاً جنت عليه قوة القوي فسلبني إياه. تغلبي أيتها المحبة على عدوتك الحرب وخلصي حبيبي فهو من أبنائك. ابتعد عنه ايها الموت ودعه يراني أو تعال وخذني اليه.

في تلك الدقيقة دخـل فتى تضم رأسه عصائب بيضاء كتبت عليهـــا الهيجاء أحرفاً قرمزية واقترب من الصبية وحياها بدمعة وابتسامة ثم أخذ يدها ووضعها على شفتيه الملتهبتين، وبصوت تآلفت فيه عوامل الحب الجارح ومفاعيل

اللقاء المفرح قال: لا تجفلي فقد أتى من تبكين من أجله، افرحي فقد أعاد اليك السلم من سرقته الحرب، وأرجع اليك فتى الإنسانية ما سلبه ابن المطامع. كفكفي الدمع يا حبيبتي وابتسمي، لأنّ للشعوب أئمة ترحم متى عمت قساوة أئمة الشعوب. لا تعجبي من إيابي حيّاً، فللحب وسم يراه الموت فينصرف، ويتوسمه العدو فيتقهقر. أنا هو، فلا تحسبيني خيالاً جاء من مرتع المنايا ليزور مربعاً يسكنه جمالك والسكون. لا تخافي فأنا حقيقة سلمت من بين الأسنّة والنار لتخبر الناس بغلبة الحب على الحرب. أنا كلمة لفظها رجل السلم لتكون توطئة لراوية سعادتك.

انعقد اللسان إذ ذاك وناب الدمع عن الكلام وحامت ملائكة السرور حول ذلك الكوخ الحقير واسترجع القلبان ما فقداه عند الوداع.

ولما جاء الصباح وقف الاثنان في وسط الحقل يتأملان جمال الطبيعة، وبعد سكينة فيها من الأحاديث ما فيها نظر الجندي نحو المشرق الأقصى وقال لحبيبته: انظري الشمس طالعة من الظلمة.

الشاعر

حلقة تصل بين هذا العالم والآتي . منهل عذب تستقي منه النفوس العطشى . شجرة مغروسة على ضفة نهر الجمال ذات ثمار يانعة تطلبها القلوب الجائعة . بلبل يتنقل على أغصان الكلام وينشد أنغاماً تملأ خلايا الجوارح لطفاً ورقة. غيمة بيضاء تظهر فوق خط الشفق ثم تتعاظم وتتصاعد حتى تملأ وجه السماء وتنسكب لتروي أزهار حقل الحياة. ملك بعثته الآلهة ليعلّم الناس الإلهيات . نور ساطع لا تغلبه ظلمة ولا يخفيه مكيال ، ملأته زيتاً عشتروت إلآلهة الحب وأشعله آبولون إله الموسيقى .

وحيد يرتدي البساطة ويتغذى اللطف ويجلس على أحضان الطبيعة ليتعلم الابتداع ، ويسهر في سكينة الليل منتظراً هبوط الروح . زرّاع يبذر حبات قلبه في رياض الشواعر ، فتنبت زرعاً خصيباً تستغله الإنسانية وتتغذى به .

هذا هو الشاعر الذي تجهله الناس في حياته وتعرفه عندما يودع هذا العالم ويعود إلى موطنه العلوي . هذا الذي لا يطلب من البشر إلا ابتسامة صغيرة ، والذي

تتصاعد أنفاسه وتملأ الفضاء أشباحاً حية جميلة والناس تبخل عليه بالخبز والمأوى .

فإلى متى أيها الإنسان ، إلى متى أيها الكون تقيم من الفخر بيوتاً للألى جبلوا أديم التراب بالدمـــاء ، وتعرض بتهامل عن الذين يهبونك من محاسن أنفسهم سلاماً ووداعة؟ وحتى مَ تعظمّ القتلة والذين حنوا الرقاب بنير الاستعباد وتتناسى رجالاً يسكبون نور الاحداق في ظلمة الليل ليعلموك أن ترى بهاء النهار ويصرفون العمر بين مخالب الشقاء كيلا تفوتك لذة السعادة ؟

وأنتم أيها الشعراء ، يا حياة هذه الحياة ، قد تغلبتم على الأجيال قسراً عن قساوة الاجيال ، وفزتم بأكاليل الغار غصباً عن أشواك الغرور ، وملكتم في القـــلوب وليس لملككم نهاية وانقضاء ، يا أيها الشعراء .

يوم مولدي

كتبت في باريس في ٦ كانون الاول
سنة ١٩٠٨

في مثل هذا اليوم ولدتني أمي .

في مثل هـــذا اليوم منذ خمس وعشرين سنة وضعتني السكينة بين أيدي هـذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك .

هـا قد سرت خمساً وعشرين مرة حول الشمس ، ولا أدري كم مرة ســـار القمر حولي ، لكنني لم ادرك بعد أسرار النور ، ولا عرفت خفايا الظلام .

قد سرت خمساً وعشرين مرة مع الأرض والقمر والشمس والكواكب حول النـــاموس الكلي الأعلى ، ولكن هوذا نفسي تهمس الآن اسماء ذلك الناموس مثلما ترجع الكهوف صدى أمواج البحر ، فهي كائنة بكيانه ، ولا تعلم ماهيته ، وتترنم بأغاني مده وجزره ، ولا تستطيع ادراكه .

منذ خمس وعشرين سنة خطتني يد الزمـــان كلمة في

كتاب هذا العالم الغريب الهائل . وهاءنذا كلمة مبهمة ، ملتبسة المعاني ، ترمز تارة إلى لا شيء ، وطوراً إلى أشياء كثيرة .

ان التأملات والأفكار والتذكارات تتزاحم على نفسي في مثل هذا اليوم من كل سنة ، وتوقف أمامي مواكب الأيام الغابرة ، وتريني أشباح الليالي الماضية ، ثم تبددها كما تبدّد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق ، فتضمحل في زوايا غرفتي اضمحلال أناشيد السواقي في الأودية البعيدة الخالية .

في مثل هذا اليوم من كل سنة تجيء الأرواح التي رسمت روحي متراكضة نحوي من جميع أطراف العالم ، وتحيط بي مرتلة أغاني الذكرى المحزنة ، ثم تتراجع على مهل وتختفي وراء المرئيات ، كأنها أسراب من الطير هبطت على بيدر مهجور فلم تجد بذوراً تلتقطها فرفرفت هنيهة ثم طارت سابحة إلى مكان آخر .

في هذا اليوم تنتصب أمامي معاني حياتي الغابرة ، كأنها مرآة ضئيلة انظر فيها طويلاً فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الأموات ، وملامح الآمال والأحلام والأماني المتجعدة كملامح الشيوخ . ثم اغمض عينيّ وانظر ثانية في تلك المرآة ، فلا أرى غير وجهي ، ثم احدق إلى وجهي فلا أرى فيه غير الكآبة ، ثم استنطق الكآبة

فأجدها خرساء لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة .

في الخمس والعشرين سنة الغابرة قد أحببت كثيراً . وكثيراً ما أحببت ما يكرهه الناس وكرهت ما يستحسنونه . والذي أحببته عندما كنت صبيّاً ما زلت أحبه الآن . والذي أحبه الآن سأحبه إلى نهاية الحياة . فالمحبة هي كل ما أستطيع أن أحصل عليه ولا يقدر أحد أن يفقدني إياه .

قد أحببت الموت مرات عديدة ، فدعوته بأسماء عذبة وتشببت به سرّاً وعلناً . ولئن لم اسلُ الموت ولا نقضت له عهداً ، فإنني صرت أحب الحياة ايضاً . فالموت والحياة قد تساويا عندي بالجمال ، وتضارعا باللذة ، وتشاركا بإنماء شوقي وحنيني ، وتساهما محبتي وانعطافي .

وقد أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهوان ، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة ، ونصبتها الجهالة المستمرة ، ونعمت جوانبها ملامس شفاه العبيد ، لكنني كنت أحب هؤلاء العبيد بمحبتي الحرية ، وأشفق عليهم ، لأنهم عميان يقبّلون أحناك الضواري الدامية ولا يبصرون ، ويمتصون لهاث الأفاعي الخبيثة ولا

يشعرون ، ويحفرون قبورهم بأظافرهم ولا يعلمون . قد أحببت الحرية أكثر من كل شيء لأنني وجدتها فتاة قد أضناها الانفراد ، وأنحلها الاعتزال ، حتى صارت خيالاً شفافاً يمرّ بين المنازل ، ويقف في منعطفات الشوارع ، وينادي عابري الطريق فلا يسمعون ولا يلتفتون .

وفي الخمس والعشرين سنة قد أحببت السعادة مثل جميع البشر ، فكنت استيقظ كل يوم وأطلبها كما يطلبونها ، لكنني لم أجدها قط في سبيلهم ، ولا رأيت أثرَ أقدامها على الرمال المحيطة بقصورهم ، ولا سمعت صدى صوتها خارجاً من نوافذ هياكلهم . ولما انفردت بطلبها سمعت نفسي تهمس في أذنيّ قائلة : السعادة صبية تولد وتحيا في أعماق القلب ولن تجيء اليه من محيطه . ولما فتحت قلبي لكي أرى السعادة وجدت هناك مرآتها وسريرها وملابسها ، لكنني لم أجدها .

وقد أحببت الناس ، أحببتهم كثيراً ، والناس في شرعي ثلاثة : واحد يلعن الحياة ، وواحد يباركها ، وواحد يتأمل بها . فقد أحببت الأول لتعاسته ، والثاني لسماحته ، والثالث لمداركه .

هكذا انقضت الخمس والعشرون سنة . وهكذا ذهبت أيامي ولياليّ متسارعة ، متتابعة ، متساقطة من حياتي مثلما تتناثر أوراق الشجر أمام رياح الخريف .

واليوم ، وقد وقفت متذكراً ، وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة ، أنظر الى كل ناحية فلا أرى لماضي حياتي أثراً أستطيع أن أومىء اليه أمام وجه الشمس قائلاً : هذا لي . ولا أجد لفصول أعوامي غلة سوى أوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء ، ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة خطوطاً وألواناً متباينة متناسقة . في هذه الأوراق المنثورة ، والرسوم المبعثرة ، قد كفنت ودفنت عواطفي وأفكاري وأحلامي ، مثلما يدفن الزراع البذور في بطن الأرض ، ولكن الزراع الذي يخرج الى الحقل ويلقي البذور بين ثنايا التراب يعود الى بيته في المساء آملاً راجياً منتظراً أيام الحصاد والاستغلال ، أما أنا فقد طرحت حبات قلبي بلا أمل ، ولا رجاء ، ولا انتظار .

والآن وقد بلغت هذه المرحلة من العمر ، فتراءى لي الماضي من وراء ضباب التنهد والأسى ، وبان لناظري المستقبل من وراء نقاب الماضي ، أقف وأنظر إلى الوجود من خلال بلور نافذتي ، وأرى وجوه الناس وأسمع أصواتهم متصاعدة إلى الفضاء ، وأعي وقع أقدامهم بين المنازل وأشعر بملامس أرواحهم وتموجات ميولهم ونبضات قلوبهم. أنظر ، فأرى الأطفال يلعبون ويتراكضون ويذرون التراب بعضهم في وجوه بعض ضاحكين مقهقهين ، وأرى الفتيان يسيرون بعزم رافعين رؤوسهم كأنهم يقرأون قصيدة

الشباب مكتوبة بين حواشي الغيوم المبطنة بأشعة الشمس، وأرى الصبايا يخطرن ويتثنين كالأغصان ويتبسمن كالأزهار وينظرن إلى الفتيان من وراء جفون ترتعش بالميل والانعطاف، وأرى الشيوخ يمشون على مهل محدودبي الظهور، متوكئين على العصي، محدقين الى الارض، كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر أضاعوها. أقف بجانب نافذتي وأنظر متأملاً بجميع هـذه الصور والأشباح الساكنة بسيرها، المتطايرة بدبيبها في شوارع المدينة وأزقتها، ثم انظر متأملاً بما وراء المدينة، فأرى البرية بكل ما فيها من الجمال الرهيب، والسكينة المتكلمة، والتلول الباسقة، والأودية المنخفضة، والأشجار النامية، والاعشاب المتمايلة، والازهار المعطرة، والانهار المترنمة، والاطيار المغردة، ثم انظر الى ما وراء البرية، فأرى البحر بكل ما في أعماقه من الغرائب والعجائب، والمدافن والاسرار، وما على سطحه من الامواج المزبدة، الغضوب، المتسارعة، المتهاونة، والأبخرة المتصاعدة، المتبدّدة، المتساقطة، ثم انظر متأملاً بما وراء البحر، فأرى الفضاء غير المتناهي بكل ما فيه من العوالم السابحة، والكواكب اللامعة، والشموس والاقمار والسيارات والثوابت، وما بينها من الدوافع والجواذب المتسالمة، المتنازعة، المتولدة، المتحوله، المتماسكة بناموس لا حدّ له ولا مدى، الخاضعة لشرع كلي ليس لبدئه ابتداء ولا لنهايته نهاية. انظر وأتأمل بجميع هذه الاشياء

من خلال بلور نافذتي فأنسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الاجيال وما سيأتي بعدها من القرون ، ويظهر لي كياني ومحيطي بكل اخفاه واعلنه كذرة من تنهدة طفل ترتجف في خلاء أزليّ الاعماق ، سرمدي العلو ، أبدي الحدود . لكنني أشعر بكيان هذه الذرة ، هذه النفس ، هذه الذات التي ادعوها أنا . أشعر بحراكها ، واسمع ضجيجها . فهي ترفع الآن أجنحتها نحو العلاء وتمتد يداها الى كل ناحية ، وتتمايل مرتعشة في مثل اليوم الذي أبانها للوجود ، وبصوت متصاعد من قدس أقداسها تصرخ قائلة : سلام أيتها الحياة . سلام أيتها اليقظة . سلام أيتها الرؤيا . سلام أيها النهار الغامر بنورك ظلمة الارض ، وسلام أيها الليل المظهر بظلمتك أنوار السماء . سلام أيتها الفصول . سلام أيها الربيع المعيد شبيبة الارض . سلام أيها الصيف المذيع مجد الشمس . سلام أيها الخريف الواهب ثمار الأتعاب وغلة الأعمال . سلام أيها الشتاء المرجع بثوراتك عزم الطبيعة . سلام أيتها الأعوام الناشرة ما أخفته الأعوام . سلام أيتها الأجيال المصلحة ما أفسدته الأجيال . سلام أيها الزمن السائر بنا نحو الكمال . سلام أيها الروح الضابط أعنّة الحياة ، المحجوب عنا بنقاب الشمس . وسلام لك أيها القلب ، لأنك تستطيع أن تهزأ بالسلام وأنت مغمور بالدموع . وسلام لك أيتها الشفاه ، لأنك تتلفظين بالسلام وأنت تذوقين طعم المرارة .

الطفل يسوع والحب الطفل

كنت بالأمس وحيداً في هذا العالم يا حبيبتي ، وكانت الوحدة قاسية كالموت . وكنت منفرداً كالزهرة النابتة في ظل الصخور المتعالية فلا تشعر الحياة بوجودي ، ولا أنا أشعر بكيان الحياة . واليوم قد استيقظت نفسي ورأتك منتصبة بقربها ، فتهيبت وتهللت ، ثم سجدت أمامك ، مثلما فعل ذلك الراعي عندما رأى العلّيقة مشتعلة .

كانت بالأمس ملامس الهواء خشنة يا حبيبتي ، وأشعة الشمس ضعيفة ، وكان الضباب يستر وجه الأرض وضجيج أمواج البحر يشابه الرعود القاصفة وكنت أتلفّت الى كل ناحية فلا أرى غير ذاتي المتوجعة واقفة بجانبي وخيالات الظلمة تهبط وتتصاعد حولي كالغربان الجائعة ، واليوم قد خفّ الهواء ، وغمر النور الطبيعة ، وسكنت الأمواج ، وانقشعت الغيوم ، فكيفما نظرت أراك وأرى أسرار الحياة محيطة بك كالهالات التي يحدثها جسم العصفور على وجه البحيرة الهادئة عندما يتحمم بمائها الهادىء .

كنت بالأمس كلمة صامتة في خاطر الليالي ، فأصبحت أغنية مفرحة على ألسن الأيام ، وقد تمّ هذا كله في دقيقة

واحدة مؤلفة من نظرة وكلمة وتنهدة وقبلة . تلك الدقيقة يا حبيبتي قد جمعت بين استعدادات نفسي الغابرة وأمانيها الآتية ، فكانت كالوردة البيضاء الخارجة من قلب الأرض المظلم الى نور النهار . تلك الدقيقة هي من كل حياتي بمنزلة ميلاد يسوع من كل الأجيال ، لأنهـا كانت مملوءة روحاً وطهراً ومحبة ، لأنهـا جعلت الظلمة في أعماقي شعاعاً ، والكآبة مرحاً ، والشقاء سعادة .

إنّ شعلات المحبـة يا حبيبتي تهبط من السماء متموجة بصور متباينة وأشكال متنوعة ، لكن فعلهـا وتأثيرها في هذا العالم هو واحد : فالشعلة الصغيرة التي تنير خلايا قلب الإنسان الفرد هي كالشعلة العظيمة المشعشعة التي تنحدر من الأعالي وتنير ظلمات الأمم جميعهـا ، لأنّ في النفس الواحدة عنـاصر وميولاً وعواطف لا تختلف البتة عن العناصر والميول والعواطف الكائنة في نفس العائلة البشرية .

كان اليهود يا حبيبتي يترقبون مجيء عظيم موعود بـه منذ ابتداء الدهر ليخلصهم من عبودية الأمم ، وكانت النفس الكبيرة في اليونان ترى أن عبادة المشتري ومينرفا قد ضعفت ، فلم تعد الأرواح تشبع من الروحيات ، وكان الفكر السامي في رومة يتأمل فيجد أن ألوهية آبولون أصبحت تتباعد عن العواطف ، وجمال فينيس الأبدي قد أخذ يقترب من الشيخوخة ، وكانت الأمم كلها تشعر على

غير معرفة منها بمجاعة نفسية إلى تعاليم مترفعة عن المادة وبميل عميق إلى الحرية الروحية التي تعلم الإنسان أن يفرح مع قريبه بنور الشمس وجمال الحياة . تلك هي الحرية الجميلة التي تخول الإنسان أن يقترب من القوة غير المنظورة بلا خوف ولا وجل بعد أن يقنع الناس طرّاً بأنه يقترب منهم من أجل سعادتهم .

كان ذلك كله من ألفي سنة يا حبيبتي عندما كانت عواطف القلب البشري تحوم مرفرفة حول المرئيات وتخشى الدنو من الروح الكلي الخالد ، عندما كان « بان » إله الاحراج يملأ نفوس الرعاة جزعاً ، وبعل إله الشمس يضغط بأيدي كهانه على قلوب المساكين والضعفاء .

ففي ليلة واحدة ، بل في ساعة واحدة ، بل في لمحة واحدة تنفرد عن الأجيال ، لأنها أقوى من الأجيال ، انفتحت شفاه الروح ولفظت « كلمة الحياة » التي كانت في البدء عند الروح ، فنزلت مع نور الكواكب وأشعة القمر وتجسدت وصارت طفلاً بين ذراعي ابنة من البشر ، في مكان حقير ، حيث يحمي الرعاة مواشيهم من كواسر الليل ... ذلك الطفل النائم على القشّ اليابس في مذود البقر – ذلك الملك الجالس فوق عرش مصنوع من القلوب المثقلة بنير العبودية ، والنفوس الجائعة الى الروح ، والأفكار التائقة إلى الحكمة – ذلك الرضيع الملتف بأثواب أمه

الفقيرة قد انتزع بلطفه صولجان القوة من المشتري وأسلمه للراعي المسكين المتكىء على الأعشاب بين أغنامه ، وأخذ الحكمة من مينرفا برقته ووضعها على لسان الصياد الفقير الجالس في زورقه على شاطىء البحيرة ، واستخلص الغبطة بحزن نفسه من آبولون ووهبها لكسير القلب الواقف مستعطياً أمام الأبواب ، وسكب الجمال بجماله من فينيس وبثه في روح المرأة الساقطة الخائفة من قساوة المضطهدين ، وأنزل البعل عن كرسي جبروته وأقام مكانه الفلاح البائس الذي ينثر في الحقل البذور مع عرق الجبين .

* * *

أولم تكن عواطفي بالأمس كأسباط اسرائيل يا حبيبتي ؟ أما ترقبت في سكينة الليل مجيء مخلص ينقذني من عبودية الايام ومتاعبها ؟ أما شعرت كالامم الغابرة بالمجاعة الروحية العميقة ؟ أما سرت على طرق الحياة مثل صبي ضائع بين الاحياء المهجورة ! أولم تكن نفسي كالنواة المطروحة على الصخرة : لا الطير يلتقطها فيميتها ، ولا العناصر تشقها فتحييها ؟ قد كان ذلك كله بالامس يا حبيبتي عندما كانت أحلامي تدبّ في جوانب الظلمة وتخاف الاقتراب من النور — عندما كان اليأس يلوي أضلعي والضجر يقوّمها . ففي ليلة واحدة ، بل في ساعة واحدة ، بل في لمحة واحدة تتنحى عن سني حياتي ، لانها أجمل من سني حياتي ،

هبط الروح من وسط دائرة النور الاعلى ، ونظر إليَّ من وراء عينيك ، وتكلم معي بلسانك ، ومن تلك النظرة وهاتيك الكلمة انبثق الحبّ وحلَّ في اعشار قلبي ... هذا الحبّ العظيم الجالس في هذا المذود المنزوي في صدري ، — هذا الحبّ الجميل الملتفّ بأقمطة العواطف — هذا الرضيع اللطيف المتكىء على صدر النفس قد جعل الاحزان في باطني مسرة واليأس مجداً والوحدة نعيماً . هذا الملك المتعالي فوق عرش الذات المعنوية قد أعاد بصوته الحياة لايامي الميتة ، وأرجع بملامسه النور إلى أجفاني المقرحة بالدموع ، وانتشل بيمينه آمالي من لجة القنوط .

* * *

كان كل الزمن ليلاً يا حبيبتي ، فصار فجراً ، وسيصير نهاراً ، لانَّ أنفاس الطفل يسوع قد تخللت دقائق الفضاء ومازجت ثانويات الاثير . وكانت حياتي حزناً ، فصارت فرحاً ، وستصير غبطة ، لانَّ ذراعي الطفل قد ضمتا قلبي وعانقتا نفسي .

مناجاة أرواح

استيقظي يا حبيبتي ! استيقظي لان روحي تناديك من وراء البحار الهائلة ، ونفسي تمد جناحيها نحوك فوق الامواج المزبدة الغضوب . استيقظي ، فقد سكنت الحركة وأوقف الهدوء ضجة سنابك الخيل ووقع أقدام العابرين ، وعانق النوم أرواح البشر ، فبقيت وحدي مستيقظاً ، لان الشوق ينتشلني كلما أغرقني النعاس ، والمحبة تدنيني إليك عندما تقصيني الهواجس . قد تركت مضجعي يا حبيبتي خوفاً من أخيلة السلو المختبئة بين طيات اللحف ، ورميت بالكتاب لان تأوهي قد أباد السطور من صفحاته فأصبحت خالية بيضاء أمام عيني . استيقظي ! استيقظي يا حبيبتي واسمعيني .

– هاءنذا يا حبيبي ! قد سمعت نداءك من وراء البحار وشعرت بملامس جناحيك ، فانتبهت وتركت مخدعي وسرت على الاعشاب فتبللت قدماي وأطراف ثوبي من ندى الليل . ها أنا واقفة تحت أغصان اللوز المزهرة اسمع نداء نفسك يا حبيبي !

– تكلمي يا حبيبتي ! ودعي أنفاسك تسيل مع الهواء

القادم نحوي من أودية لبنان . تكلمي ، فلا سامع غيري ، لان الظلمة قد دحرت جميع المخلوقات إلى أوكارهـــا ، والنعاس أسكر سكان المدينة وبقيت وحدي صاحياً .

– قد نسجت السماء نقاباً من أشعة القمر وألقته على جسد لبنان يا حبيبي !

– قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداء كثيفاً مبطناً بدخان المعامل وأنفاس الموت وسترت به أضلع المدينة يا حبيبتي !

– قد رقد سكان القرى في أكواخهم القائمة بين أشجار الجوز والصفصاف وتسابقت نفوسهم نحو مسارح الاحلام يا حبيبي !

– قد أناخت أحمال الذهب قامات البشر ، وأوهنت عقبات المطامع ركبهم ، وأثقلت المتاعب أجفانهم ، فارتموا عـــلى الفراش وأشباح الخوف والقنوط تعذب قلوبهم يا حبيبتي .

– قد سرت في الاودية أخيلة الاجيال الغـــابرة ، وحامت على الروابي أرواح الملوك والانبياء ، فانثنت فكرتي نحو مسارح الذكرى وأرتني عظائم الكلدانيين وفخامة الآشوريين ونبالة العرب .

– قد سرت في الازقة أرواح اللصوص القاتمة ، وظهرت من بين شقوق النوافذ رؤوس أفاعي الشهوات ، وجرت في منعطفات الشوارع أنفاس الامراض ممزوجة بلهاث المنايا ، فأزاحت الذكرى ستائر النسيان وأرتني مكاره صـــادوم وآثام عامورة .

– قد تمايلت الأغصان يا حبيبي وتحـالف حفيفها مع خرير ساقيـــة الوادي ورددت على مسامعي نشيد سليمان ورنات قيثارة داود وأغاني الموصلي .

– قـد ارتعشت نفوس أطفال الحي وأقلقهم الجوع ، وتسارعت تنهدات الأمهـات المضطجعات على اسرّة الهمّ واليأس ، وراعت أحلام العوز قلوب الرجـال المقعدين ، فسمعت نواحاً مرّاً وزفيراً متقطعاً يملأ الاضلوع ندباً ورثاء.

– قـد فاحت روائح النرجس والزنبق وعانقت عطر الياسمين والبيلسان ثم تمازجت بانفاس الأرز الطيبة وسرت مع تموجات النسيم فوق الطلول المتشعبة والممرات الملتوية ، فملأت النفس انعطافاً ومنحتها حنيناً إلى الطيران .

– قد تصاعدت روائح الأزقة الكريهة واختمرت بجراثيم العلل ، ومثل أسهم دقيقة خافية قد خدشت الحس وسممت

– ها قد جاء الصباح يا حبيبي وداعبت أصابع اليقظة أجفان النيام وفاضت الأشعة البنفسجية من وراء الليل وأزالت غشاء الليل عن عزم الحياة ومجدها ، فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كتفي الوادي وترنمت أجراس الكنائس وملأت الأثير نداء مستحبّاً معلنة بدءَ صلاة الصباح ، فأرجعت الكهوف صدى رنينها ، كأن الطبيعة بأسرها قامت مصلية . قد غادرت العجول مرابضها وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرها وانثنت نحو الحقول ترتعي رؤوس الأعشاب المتلمعة بقطر الندى ، ومشى أمامها الرعاة ينفخون الشبّابات ووراءها الصبايا المتأهلات مع العصافير بقدوم الصباح .

– قد جاء الصباح يا حبيبي وانبسطت فوق المنازل المكردسة اكف النهار الثقيلة ، فأزيحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الأبواب ، فبانت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة ، وذهب التعساء الى المعامل وداخل أجسادهم يقطن الموت في جوار الحياة ، وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف ، كأنهم منقادون قهراً الى إلى عراك هائل مهلك . ها قد غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين ، وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوي الدواليب وعويل البخار ، وأصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيها القوي الضعيف ويستأثر الغني الظلوم بأتعاب الفقير المسكين.

– ما أجمل الحياة ههنا يا حبيبي ، فهي مثـــل قلب الشاعر المملوء نوراً ورقـّة .

– ما أقسى الحياة ههنا يا حبيبتي ، فهي مثـل قلب المجرم المفعم بالإثم والمخاوف .

أيتها الرّيح

تمرين آناً مترنحة فرحة ، وآونة متأوهة نادبة ، فنسمعك ولا نشاهدك ، ونشعر بك ولا نراك ، فكأنك بحر من الحب يغمر أرواحنا ولا يغرقها ، ويتلاعب بأفئدتنا وهي ساكنة .

تتصاعدين مع الروابي وتنخفضين مع الاودية وتنبسطين مع السهول والمروج . ففي تصاعدك عزم ، وفي انخفاضك رقة ، وفي انبساطك رشاقة ، فكأنك مليك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ويترفع مع الاقوياء المتشامخين .

في الخريف تنوحين في الاودية فتبكي لنواحك الاشجار ، وفي الشتاء تثورين بشدة فتثور معك الطبيعة بأسرها ، وفي الربيع تعتلين وتضعفين ولضعفك تستفيق الحقول ، وفي الصيف تتوارين وراء نقاب السكون فنخالك ميتاً قتلته سهام الشمس ثم كفنته بحرارتها .

لكن ، أنادبة كنت أيام الخريف ، أم ضاحكة من خجل الاشجار بعد ان عرّيتها من ملابسها ؟ أغاضبة كنت أيام الشتاء ، أم راقصة حول قبور الليالي المكللة بالثلوج ؟

أعليلة كنت أيام الربيع ، ام حبيبة أضناها البعاد فجاءت تصعد بالتنهد أنفاسها على وجه حبيبها شاب الفصول لتنبه من رقاده ؟ أميتة كنت أيام الصيف ، أم هاجعة في قلوب الاثمار وبين جفنات الكروم وعلى بيادر القش ؟

أنت تحملين من أزقة المدينة أنفاس العلل ومن الروابي أرواح الازهار . وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التي تحتمل أوجاع الحياة بسكينة ، وبسكينة تلتقي بأفراحها .

أنت تهمسين في أذن الوردة أسراراً غريبة تفهم مفادها ، فتضطرب تارة ، وطوراً تبتسم . وهكذا تفعل الآلهة بأرواح البشر .

أنت تبطئين هنا ، وتتسارعين هناك ، وتتراكضين هنالك ، ولكنك لا تقفين أبداً . وهكذا تفعل فكرة الانسان التي تحيا بالحركة وتموت بالسبات .

أنت تكتبين على وجه البحيرة أشعاراً ثم تمحينها . وهكذا يفعل الشعراء المترددون .

من الجنوب تجيئين حارة كالمحبة ، ومن الشمال تأتين باردة كالموت ، ومن المشرق لطيفة كملامس الأرواح ، ومن المغرب تتدفقين شديدة كالبغضاء . أمتقلبة أنت كالدهر ؟ أم أنت رسول الجهات تبلغين إلينا ما تأتمنك عليه ؟

تمرين غاضبة في الصحاري فتدوسين القوافل بقساوة ثم تلحدينها بلحف الرمـــال. فهل أنت أنت ذلك السيال الخفي، المتموج مع أشعة الفجر بـــين أوراق الغصون، المنسل كالأحلام في منعطفات الاودية حيث تتايل الازهار شغفاً بك وتتخاصر الاعشاب سكراً من أنفاسك؟

تثورين ظلماً في البحار فتحركين ساكن أعماقها، حتى إذا أزبدت حنقاً عليك فتحت فاها لجة ولقمتها من السفن والارواح لقماً مرة. فهل أنت أنت ذلك المحب المتلاعب حنوّاً بغدائر الاطفال المتراكضين حول المنازل؟

*

الى أين تتسارعين بأرواحنا وتهداتنا وأنفاسنا؟ الى أين تحملين رسوم ابتساماتنا؟ وماذا تفعلين بشعلات قلوبنا المتطايرة؟ هل تذهبين بها الى ما وراء الشفق، الى مـا وراء هذه الحياة أم تجرّينها فريسة الى المغاور البعيـــدة والكهوف المخيفة وهناك تقذفينها يميناً وشمالاً حتى تضمحل وتختفي؟

في سكينة الليل تبيح لك القلوب أسرارها، وعنـد الفجر تحملك العيون اهتزازات أجفانها. فهل أنت ذاكرة ما شعرت به القلوب وما رأته العيون؟

بين جنحيك يستودع الفقير صدى انسحاقه ، واليتيم حرقته ، والحزينة تأوهاتها ، وطي أثوابك يضع الغريب حنينه ، والمتروك لهفته ، والساقطة عويل نفسها . فهل انت حافظة لهؤلاء الصغار ودائعهم ؟ أم أنت كهذه الارض لا تودعها شيئاً إلاّ وتحوله الى جسمها ؟

أسامعة أنت هذا النداء ، وهذا العويل ، وهذا الضجيج ، وهذا البكاء ؟ أم أنت كالاقوياء من البشر تمتد اليهم الاكف فلا يلتفتون ، وتتصاعد نحوهم الاصوات فلا يسمعون ؟

أسامعة أنت يا حياة للسامع ؟

رجوع الحبيب

ما جاء الليل حتى انهزم الأعداء وفي ظهورهم تخديش السيوف ووخز الرماح ، فعاد الظافرون حاملين ألوية الفخر ، منشدين اهازيج النصر على توقيع حوافر خيولهم المتساقطة كالمطارق على حصباء الوادي .

اشرفوا على الجبهة وقد طلع القمر من وراء فم الميزاب ، فظهرت تلك الصخور الباسقة متشامخة مع نفوس القوم نحو العلاء وبانت غابة الأرز بين تلك البطاح كأنها وسام مجد أثيل علقته الاجيال الغابرة على صدر لبنان .

ظلوا سائرين وأشعة القمر تتلمع على اسلحتهم ، والكهوف البعيدة تتقلد تهاليلهم ، حتى اذا ما بلغوا جبهة العقبة اوقفهم صهيل فرس واقف بين الصخور الرمادية كأنه قُدَّ منها . فاقتربوا منه مستطلعين ، واذا بجثة هامدة مرتمية على اديم التراب المجبول بنجيع الدماء ، فصرخ زعيم القوم قائلاً : أروني سيف الرجل فاعرف صاحبه . فترجل بعض الفرسان واحاطوا بالمصروع مستفسرين . وبعد هنيهة التفت احدهم نحو الزعيم وقال بصوت أجشّ : قد عانقت اصابعه الباردة قبضة السيف بشدة ، فمن العار ان تنزعه .

وقال آخر : قد لبس السيف غمداً من الدماء ، فاختفى فولاذه .

وقال آخر : قد تجمدت الدماء على الكف والقبضة وأوثقت الشفرة بالزند وصيرتها واحداً .

فترجل الزعيم واقترب من القتيل قائلاً : اسندوا رأسه ودعوا أشعة القمر ترينا وجهه . ففعلوا مسرعين ، وبان وجه القتيل من وراء نقاب الموت ظاهرة عليه ملامح البطش والبأس والتجلد ، وجه فارس قوي يتكلم بلا نطق عن شدة رجوليته ، وجه متأسف فارح ، وجه من لاقى العدو عابساً وقابل الموت مبتسماً ، وجه بطل لبناني حضر موقعة ذلك النهار ورأى طلائع الاستظهار ، لكنه لم يبق لينشد مع رفقائه أهازيج النصر . ولما أزاحوا كوفيته ومسحوا غبار المعمعة عن وجهه المصفر ذعر الزعيم وصرخ متوجعاً هذا ابن الصعبي ، فيا للخسارة ! فردد القوم هذا الاسم متأوهين ، ثم سكتوا كأن قلوبهم السكرى بخمر النصر قد فاجأها الصحو ، فرأت ان خسارة هذا البطل هي أجسم من مجد التغلب وعز الانتصار . ومثل تماثيل الرخام أوقفهم هول المشهد وايبس ألسنتهم فسكتوا ، وهذا كل ما يفعله الموت في نفوس الأبطال ، فالبكاء والنحيب حريان بالنساء ، والعويل والصراخ خليقان بالاطفال ، ولا يجمل برجال السيف غير السكوت المملوء هيبة ووقاراً ، ذلك

السكوت الذي يقبض على القلوب القوية مثلما تقبض مخالب النسر على عنق الفريسة ، ذلك السكوت الذي يترفع عن الدموع والعويل فيزيد بترفعه البلية هولاً وقساوة ، ذلك السكوت الذي يهبط بالنفس الكبيرة من قمم الجبال إلى أعماق اللجج ، ذلك السكوت الذي يعلن مجيء العاصفة ، وان لم تجيء كان هو أشد فعلاً منها .

خلعوا أثواب الفتى المصروع ليروا أين وضع الموت يده ، فبانت كلوم الشفار في صدره كأنها أفواه مزبدة تتكلم في هدوء ذلك الليل عن همم الرجال . فاقترب الزعيم وجثا مستفحصاً فوجد دون سواه منديلاً مطرزاً بخيوط الذهب مربوطاً حول زنده . فتأمله سرّاً وعرف اليد التي غزلت حريره والأصابع التي حاكت خيوطه . فستره بالأثواب وتراجع قليلاً إلى الوراء حاجباً وجهه المنقبض ببده المرتعشة ، تلك اليد التي كانت تزيح بعزمها رؤوس الأعداء قد ضعفت وارتجفت وصارت تمسح الدموع ، لأنها لامست حواشي منديل عقدت أطرافه أصابع محبوبة حول زند فتى جاء ليشهد يوم الكريهة مدفوعاً ببسالته فصرع وسوف يرجع إليها محمولاً على أكف رفاقه .

وبينما كانت نفس الزعيم تراوح بين مظالم الموت وخفايا الحب قال أحد الواقفين : تعالوا نحفر له قبراً تحت تلك السنديانة ، فتشرب إصولها من دمه وتتغذى فروعها من

بقاياه ، فتزداد قوة وتصير خالدة وتكون له رمزاً يمثل لهذه الطلول بطشه وبأسه .

فقال آخر : لنحمله إلى غابة الأرز ونقبره بقرب الكنيسة، فتظل عظامه مخفورة بظل الصليب إلى آخر الدهر .

وقال آخر : هنـــا اقبروه هنا ، حيث جبل التراب بدمائه ، واتركوا سيفه في يمينه ، واغرسوا رمحه بجانبه ، وانحروا حصانه على قبره ، ودعوا أسلحته تؤنسه في هذه الوحدة .

وقال آخر : لا تلحدوا سيفاً مضرجـاً بدم الأعداء ، ولا تنحروا مهراً يخوض المنايا ، ولا تتركوا في الوعر سلاحاً تعود هز الأكف وعزم السواعد ، بـل احملوها إلى ذويه لأنها خير ميراث .

وقال آخر : تعالوا نجثو مصلين حواليه صلاة الناصري، فتغفر له السماء وتبارك انتصارنا .

وقال آخر : لنرفعه على الأكتاف جاعلين له الرمـاح والترس نعشاً فنطوف به في هذا الوادي منشدين أهازيج النصر فيشاهد أشلاء الأعداء وتبتسم شفاه جراحه قبل أن يخرسها تراب القبر .

وقال آخر : تعالوا نعليه سرج جواده ونسنده بجمام القتلى ونقلده رمحه وندخله الاحياء ظافراً ، فهو لم يستسلم للمنية إلا بعد أن حملها من أرواح الاعداء حملاً ثقيلاً .

وقال آخر : تعالوا نودعه لحف هذا الجبل ، فيكون له صدى الكهوف نديماً ، وخرير السواقي مؤنساً ، فترتاح عظامه في برية يكون فيها وقع أقدام الليالي خفيف الوطأة.

وقال آخر : لا تغادروه ههنا ، ففي البرية وحشة مملة ووحدة قاسية ، بل تعالوا ننقله إلى جبانة القرية ، فيكون له من أرواح جدودنا رفاق تناجيه في سكينة الليل وتقصُّ عليه أخبار حروبهم وأحاديث أمجادهم .

فتقدم الزعيم إذ ذاك إلى وسط رجاله وأستكتهم بإشارة، ثم قال متنهداً : لا تزعجوه بذكرى الحروب ، ولا تعيدوا على مسامع روحه الحائمة فوق رؤوسنا أخبار السيوف والرماح ، بل تعالوا نحمله بسكينة وهدوء إلى مسقط راسه . ففي ذلك الحي نفس ساهرة تترقب قدومه ، نفس صبية تنتظر رجوعه من بين الأسنَّة ، فلنعده اليها كيلا تحرم نظرة من وجهه وقبلة من جبينه .

حملوه على المناكب مطأطئي الرؤوس ، خاشعي العيون، ومشوا بسكينة محزنة يتبعهم فرسه الكئيب يجر مقوده على الارض ويصهل من وقت إلى آخر ، فتجيبه الكهوف بصداها ، كأنَّ للكهوف أفئدة تشعر مع البهيمة بشدة الضيم والاسى .

بين أضلع ذلك الوادي ، حيث أشعة القمر تسترق خطواتها ، سار موكب النصر وراء موكب الموت وقد مشى أمامها طيف الحب ساحباً أجنحته المكسورة .

جمال الموت

مرفوعة إلى M. E. H.

دعوني أنم ، فقد سكرت نفسي بالمحبة .
دعوني أرقد ، فقد شبعت روحي من الايام والليالي .
اشعلوا الشموع واوقدوا المباخر حول مضجعي ، وانثروا اوراق الورد والنرجس على جسدي ، وعفروا بالمسك المسحوق شعري ، واهرقو الطيوب على قدمي ، ثم انظروا واقرأوا ما تخطه يد الموت على جبهتي .

خلوني غارقاً بين ذراعي الكرى ، فقد تعبت أجفاني من هذه اليقظة .

اضربوا على القيثارات ودعوا رنات أوتارها الفضية تتمايل في مسامعي .

انفخوا الشبابات والنايات وحيكوا من أنغامها العذبة نقاباً حول قلبي المتسارع نحو الوقوف .

ترنموا بالأغاني الرهاوية وابسطوا من معانيها السحرية فراشاً لعواطفي ثم تأملوا وانظروا شعاع الامل في عينيّ .
امسحوا الدموع يا رفاقي ، ثم ارفعوا رؤوسكم مثلما ترفع

الازهار تيجانها عند قدوم الفجر ، وانظروا عروسة الموت منتصبة كعمود النور بين مضجعي والفضاء ... امسكوا انفاسكم واصغوا هنيهة واسمعوا معي حفيف اجنحتها البيضاء.

تعالوا وودّعوني يا بني أُمي ! قبلوا جبهتي بشفاه مبتسمة. قبلوا شفتيَّ بأجفانكم وقبلوا أجفاني بشفاهكم .

قربوا الاطفال الى فراشي ودعوهم يلامسوا عنقي بأصابعهم الوردية الناعمة . قربو الشيوخ ليباركوا جبهتي بأيديهم الذابلة المتجمدة . دعوا بنات الحي يقتربن وينظرن خيال الله في عينيَّ ويسمعن صدى نغمة الابدية متسارعة مع انفاسي.

الانفصال

ها قد بلغت قمة الجبل فسبحت روحي في فضاء الحرية والانعتاق .

قد صرت بعيدا بعيداً يا بني امي ، فانحجبت عن بصيرتي جبهات الطلول وراء الضباب ، وغمرت خلايا الاودية ببحر السكون ، وامحت السبل والممرات بأكف النسان ، وتوارت المروج والغابات والعقبات وراء اشباح بيضاء كغيوم الربيع، وصفراء كشعاع الشمس وحمراء كوشاح المساء .

قد تضعضعت أغاني امواج البحر ، واضمحلت ترنيمة السواقي في الحقول ، وسكنت الاصوات المتصاعده من جوانب

الاجتماع ، فلم أعد أسمع سوى أنشودة الخلود متآلفة مع ميول الروح .

الراحة

اخلعوا نسيج الكتان عن جسدي وكفنوني بأوراق الفلّ والزنبق .

انتشلوا بقاياي من تابوت العاج ومددوها على وسائد من زهر البرتقال والليمون . لا تندبوني يا بني أمي ، بل أنشدوا أغنية الشباب والغبطة . لا تذرفي الدموع يا ابنة الحقول ، بل ترنمي بموشحات أيام الحصاد والعصير .

لا تغمروا صدري بالتأوه والتنهد ، بل ارسموا عليه بأصابعكم رمز المحبة ووسم الفرح .

لا تزعجوا راحة الأثير بالتعزيم والتكهين ، بل دعوا قلوبكم تتهلل معي بتسبيحة البقاء والخلود .

لا تلبسوا السواد حزناً عليّ ، بل تردوا البياض فرحاً معي .

ولا تتكلموا عن ذهابي بالغصات ، بل أغمضوا عيونكم تروني بينكم الآن وغداً وبعده .

مددوني على اغصان مورقة وارفعوني على الاكتاف وسيروا بي ببطء إلى البرية الخالية .

لا تحملوني إلى الجبانة ، لأنّ الزحام يزعج راحتي ، وقضقضة العظام والجماجم تسلب سكينة رقادي .

احملوني إلى غابة السرو واحفروا لي قبراً في تلك البقعة حيث ينبت البنفسج بجوار الشقيق .

احفروا قبراً عميقاً كيلا تجرف السيول عظامي إلى الوادي .

احفروا قبراً واسعاً لكي تجيء أشباح الليل وتجلس بجانبي .

اخلعوا هذه الأثواب ودلوني عارياً إلى قلب الأرض . مددوني ببطء وهدوء على صدر أمي .

اغمروني بالتراب الناعم وألقوا مع كل حفنة قبضة من بذور السوسان والياسمين والنسرين فتنبت على قبري ممتصة عناصر جسدي ، وتنمو ناشرة في الهواء رائحة قلبي ، وتتعالى رافعة في وجه الشمس سرائر راحتي ، وتتمايل مع النسيم مذكرة عابر الطريق بماضي ميولي وأحلامي .

اتركوني الآن يا بني أمي ، اتركوني وحدي وسيروا بأقدام خرساء مثلما تسير السكينة في الأودية الخالية .

دعوني وحدي وتفرقوا عني بهدوء مثلما تتفرق أزاهر اللوز والتفاح عندما تنثرها أنفاس نيسان .

ارجعوا الى منازلكم فتجدوا هناك ما لم يستطع الموت أن يأخذه مني ومنكم .

اتركوا هذا المكان ، فالذي تطلبونه صار بعيداً ، بعيداً عن هذا العالم ...

أغاني

أغنية

في أعماق نفسي أغنية لا ترتضي الألفاظ ثوباً . أغنية تقطن حبة قلبي ، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على الورق ، وتحيط بعواطفي كغلاف شفاف ، فلن تنسكب على لساني كالرضاب .

كيف أتنهدها وأنا أخاف عليها من دقائق الأثير ؟ ولمن أنشدها وقد تعودت سكنى بيت نفسي فأخشى عليها من خشونة الآذان ؟

إن نظرت إلى عينيّ رأيت خيال خيالها ، وإن لمست أطراف أصابعي شعرت باهتزازاتها .

أعمال يدي تبينها مثلما تعكس البحيرة لمعان النجم ، ودموعي تبيحها كما تبيح قطرات الندى سر زهرة الورد عندما تبعثرها الحرارة .

أغنية تنشرها السكينة ويطويها الضجيج وترددها الأحلام وتحفيها اليقظة .

هي أغنية الحب أيها الناس ، فأي اسحق ينشدها بل أي داود يرتلها ؟

هي أعبق من أنفـــاس زهرة الياسمين ، فأية حنجرة تستعبدها ؟ وأصون من سر العذارى ، فأية أوتار تستبيحها ؟

من يجمع بين قواصف البحر وتغريدة البلبل ويقرن العواصف بتنهدة الطفل ؟ أي بشري ينشد أغنية الآلهة ؟

أغنية الموج

أنا والشاطىء عاشقان يقربها الهوى ويفصلها الهواء . أجيء من وراء الشفق الأزرق كما امزج فضة زبدي بذهب رماله ، وأبرد حرارة قلبه برضابي .

عند الفجر أتلو شرع الغرام عـــلى مسامع حبيبي ، فيضمني إلى صدره . وفي المساء أترنم بصـــلاة الشوق ، فيقبلني .

أنا لجوج جزوع وحبيبي حليف صبر وأليف تجلد .

يأتي المدُّ فأعـــانق حبيبي ، ويعقبه الجزر فأترامى على أقدامه .

كم رقصت حول بنـات البحر عندما كنَّ يطلعن من الأعماق ويجلسن على الصخور ليتفرجن على النجوم . وكم سمعت المحب يشكو الغرام لذاتِ حُسنٍ فساعدته عـــلى التأوه والتنهد . وكم نادمت الصخور وهي جامدة وداعبتها ضاحكاً ولم تبتسم . وكم خلصت من اللجة أجساداً وجئت بها إلى الأحياء . وكم سرقت من الأعماق درّاً أهديته الى ربات الجمال !

في سكينة الليل عندما تعانق المخلوقات طيف الكرى أسهر مترنماً تارة ، متنهداً أخرى . ويحي ! لقد أتلفني السهر ، ولكن أنا محب وحقيقة الحب يقظة .

هذه حياتي وذا ما عشت أصنعه .

أغنية المطر

أنا خيوط فضية تطرحني الآلهة من الأعالي فتأخذني الطبيعة وتنمق بي الأودية .

أنا لآلىء جميلة نثرت من تاج عشتروت فسرقتني ابنة الصباح ورصعت بي الحقول .

أنا أبكي فتبتسم الطلول ، واتضع فترتفع الأزهار . الغيمة والحقل عاشقان وأنا بينهما رسول مسعف انهمل فأبرّد غليل هذا واشفي علة تلك .

صوت الرعد وأسياف البرق تبشر بقدومي ، وقوس قزح يعلن نهاية سفرتي ، كذا الحياة الدنيا تبتدىء بين أقدام المادة الغضبى وتنتهي على أكف الموت الهادىء .

أصعد من قلب البحيرة وأسير على أجنحة الأثير ، حتى إذا ما رأيت روضة جميلة سقطت وقبلت ثغور أزاهرها وعانقت أغصانها .

في السكينة أطرق بأناملي اللطيفة بلور النوافذ فتؤلف تلك الطرقات نغمة تفقهها النفوس الحساسة .

حرارة الهواء تولدني وأنا أقتل حرارة الهواء ، كذا المرأة التي تتغلب على الرجل بقوة استمدتها من الرجل .

انا تنهدة البحر ، انا دمعة السماء ، انا ابتسامة الحقل . كذا الحب – تنهدة من بحر العواطف ودمعة من سماء التفكر وابتسامة من حقل النفس .

أغنية الجمال

انا دليل الحب ، انا خمرة النفس ، انا مأكل القلب ، انا وردة افتح قلبي عند فتوة النهار فتأخذني الصبية وتقبلني وتضعني على صدرها .

انا بيت السعادة ، انا مصدر الفرح ، انا مبدا الراحة ، انا ابتسامة لطيفة على شفتي غادة ، يراني الشاب فينسى اتعابه وتصير حياته مسرح احلام لذيذة .

انا موحي الشعراء وهادي المصورين ومعلم الموسيقيين .

انا نظرة في عين طفل تراها الأم الحنون فتسجد وتصلي وتمجد الله .

تجليت لآدم بجسم حواء فاستعبدته ، وظهرت لسليمان في قدّ حبيبته فصيّرته حكيماً وشاعراً .

ابتسمت لهيلانة فخربت تروادة ، وتوجت كليوبترا فعم الانس في وادي النيل .

أنا كالدهر أبني اليوم وأهدم غداً ، أنا الله أحيي وأميت .

أنا أرقُّ من تنهدة زهرة البنفسج ، أنا أشد من العاصفة .

أنا حقيقة ايها الناس ، أنا حقيقة وهذا خير ما تعلمونه .

أُغنية السعادة

الانسان حبيبي وأنا حبيبته . أشتاق إليه ويهيم بي ، ولكن ، اواه ! لي في محبته شريكة تشقيني وتعذبه ، وضرّة طاغية تدعى المادة تتبعنا حيث نذهب وتفرقنا كالرقيب .

اطلب حبيبي في البرّية تحت الأشجار وبقرب البحيرات فلا أجده ، لأن المادة قد غرته وذهبت به الى المدينة ، إلى الاجتماع والفساد والشقاء .

أطلبه في هياكل المعرفة وفي هياكل الحكمة فلا أجده ، لأن المادة ، تلك التي ترتدي التراب ، قد قادته إلى معاقل الأنانية حيث يقطن الانهماك .

اطلبه في حقل القناعة فلا أجده ، لأن عدوتي قد قيدته في مغاور الطمع والشراهة .

أناديه عند الفجر عندما يبتسم المشرق ، فلا يسمعني ، لأن كرى الاستمساك قد أثقل عينيه . أداعبه في المساء إذ

تسود السكينة وتنام الأزهار ، فلا يحفل بي ، لأن انشغافه بآتي الغد يشغل ضميره .

حبيبي يحبني ، يطلبني في أعماله وهو لن يجدني إلا في أعمال الله . يروم وصالي في صرح المجد الذي بناه على جماجم الضعفاء وبين الذهب والفضة وأنا لا أوافيه إلا في بيت البساطة الذي بنته الآلهة على ضفة جدول العواطف . يريد تقبيلي أمام الطغاة والقتلة وأنا لا أدعه يلثم ثغري الا في الوحدة بين أزهار الطهر . يبتغي الحيلة وسيطاً بيننا ولا اطلب وسيطاً الا العمل المنزه ، العمل الجميل .

قد تعلم حبيبي الصراخ والضجيج من عدوتي المادة وانا سوف أعلمه ان يذرف دمعة استعطاف من عين نفسه ويتنهد تنهدة استكفاء . حبيبي لي وأنا له .

انشودة الزهرة

أنا كلمة تقولها الطبيعة ثم تستردها وتخفيها طي قلبها ثم تقولها أنا نجم هبط من الخيمة الزرقاء على بساط أخضر .

أنا ابنة العناصر التي حبل بها الشتاء وتمخض بها الربيع ورباها الصيف ونومها الخريف .

أنا هدية المحبين ، انا اكليل العرس ، أنا آخر عطية من حي الى ميت .

عند الصباح أتعاون والنسيم على اعلان مجيء النور ، وفي المساء اشترك مع الطيور بوداعه .

أتمايل في السهول فأزينها ، واتنفس في الهواء فأعطره اضم الكرى فترمقني عيون الليل العديدة ، واطلب اليقظة لأحدق بعين النهار الوحيدة .

انا اشرب خمرة الندى واسمع اغاني الشحارير وارقص على تصفيق الأعشاب . انا انظر إلى العلو دائماً كي ارى النور ولا اري خيالي ، وهذه حكمة لم يتعلمها الإنسان بعد .

نشيد الإنسان

وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم
ثم يحييكم ثم إليه ترجعون
القرآن الشريف

أنا كنت منذ الأزل ، وها أنا ذا ، وسأكون الى آخر الدهر ، وليس لكياني انقضاء .

سبحت في فضاء اللانهاية ، وطرت في عالم الخيال ؛ واقتربت من دائرة النور الأعلى ، وها أنا الآن سجين المادة .

سمعت تعاليم كنفوشيوس ، وأصغيت لحكمة برهما ، وجلست بقرب بوذا تحت شجرة المعرفة ، وها أنا الآن أغالب الجهل والجحود . كنت على الطور اذ تجلى « يهوه » لموسى ، وفي عبر الاردن فرأيت معجزات الناصري ، وفي المدينة فسمعت أقوال رسول العرب ، وها أنا الآن أسير الحيرة . شاهدت قوة بابل ، ومجد مصر ، وعظمة اليونان ، ولم أزل أرى الضعف والذل والصغر بادية في جميع تلك الأعمال . جالست سحرة عين دور ، وكهنة آشور ، وأنبياء فلسطين ، وما برحت انشد الحقيقة . حفظت الحكمة التي

نزلت على الهند ، واستظهرت الشعر المنبثق من قلوب سكان جزيرة العرب ، ووعيت الموسيقى المتجسمة من عواطف أهل المغرب ، وما زلت أعمى لا أرى ، وأصمّ لا أسمع . احتملت قساوة الفاتحين الطامعين ، وقاسيت ظلم الحكام المستبدين وعبودية الاقوياء الباغين ، وما برحت ذا قوة أكافح بها الايام .

شاهدت وسمعت كل ذلك وأنا طفل ، ولسوف اشاهد واسمع أعمال الشبيبة ومآتيها ، ولسوف اشيخ وابلغ الكمال وارجع الى الله .

أنا كنت منذ الازل ، وها أنا ذا ، وسأكون الى آخر الدهر ، وليس لكياني انقضاء .

صوت الشاعر

- ١ -

القوة تزرع في أعماق قلبي وأنا أحصد وأجمع السنابل وأعطيها أغماراً للجائعين . الروح يحيي هذه الجفنة الصغيرة وأنا أعصر عناقيدها وأسقيها للظامئين . السماء تملأ هذا السراج زيتاً وأنا انيره واضعه في نافذة بيتي من اجل العابرين في ظلمة الليل . انا فاعل هذه الاشياء ، لانني احيا بها ، واذا منعتني الايام وغلت يدي الليالي طلبت الموت ، فالموت اخلق بنبي منبوذ في أمته وشاعر غريب بين اهله .

البشر يضجون كالعاصفة وانا اتنهد بسكينة ، لاني وجدت عنف العاصفة يزول وتبتلعه لجة الدهر اما التنهدة فتبقى ببقاء الله .

البشر يلتصقون بالمادة الباردة كالثلج وانا اطلب شعلة المحبة لاضمها الى صدري فتأكل ضلوعي وتبري احشائي ، لاني ألفيت المادة تميت الإنسان بلا ألم ، والمحبة تحييه بالاوجاع .

البشر ينقسمون الى طوائف وعشائر وينتمون الى بلاد وأصقاع ، وأنا أرى ذاتي غريباً في بلد واحد ، وخارجاً عن

أمة واحدة . فالارض كلها وطني والعائلة البشرية عشيرتي ، لاني وجدت الإنسان ضعيفاً ومن الصغر ان ينقسم على ذاته ، والارض ضيقة ومن الجهل ان تتجزأ إلى ممالك وامارات .

البشر يتكاتفون على هدم هياكل الروح ويتعاونون على بناء معاهد الجسد ، وانا وحدي واقف في موقف الرثاء ، على انني اصغي فأسمع من داخلي صوت الامل قائلاً : مثلما تحيي المحبة القلب البشري بالاوجاع كذا تعلمه الغباوة سبل المعرفة . فالاوجاع والغباوة تؤول الى لذة عظيمة ومعرفة كاملة لان الحكمة السرمدية لم تخلق شيئاً باطلاً تحت الشمس .

- ٢ -

احنّ الى بلادي لجمالها واحب سكان بلادي لتعاستهم ، ولكن اذا ما هب قومي مدفوعين بما يدعونه وطنية وزحفوا على وطن قريبي وسلبوا امواله وقتلوا رجاله ويتموا اطفاله ورملوا نساءه وسقوا ارضه دماء بنيه واشبعوا ضواريه لحوم فتيانه كرهت اذ ذاك بلادي وسكان بلادي .

اتشبب بذكر مسقط رأسي واشتاق الى بيت ربيت فيه ، ولكن اذا مرّ عابر طريق وطلب مأوى في ذلك البيت

وقوتاً من سكانه ومُنع مطروداً استبدلت تشبيبي بالرثاء وشوقي بالسلو وقلت بذاتي : انّ البيت الذي يضن بالخبز على محتاجه ، وبالفراش عـــلى طالبه ، لهو احق البيوت بالهدم والخراب .

أُحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي . وأُحب بلادي بقسم من محبتي لارض وطني . واحب الارض بكليتي لانها مرتع الإنسانية روح الأُلوهية على الارض . الإنسانية المقدسة روح الأُلوهية على الأرض . تلك الإنسانية الواقفة بـــين الخرائب ، السائرة قامتها العارية بالاطمار البالية ، الذرافة الدموع السخينة على وجنتيها الذابلتين ، المنادية ابناءهـــا بصوت يملا الأثير أنةً وعويلاً وابناؤها مشغولون عن ندائها باغاني العصبية ، منصرفون عن دموعها بصقل السيوف تلك الإنسانية الجالسة وحدها تستغيث بالقوم وهم لا يسمعون ، وان سمعها فرد واقترب منها ومسح دموعها وعزّاها في شدائدها قال القوم : اتركوه فالدموع لا تؤثر بغير الضعيف .

الانسانية روح الأُلوهية على الارض . تلك الالوهية السائرة بين الأمم . المتكلمة بالمحبة ، المشيرة الى سبل الحياة والناس يضحكون مستهزئين بأقوالها وتعاليمها . تلك التي سمعها بالأمس الناصري فصلبوه وسقراط فسموه ، والتي سمعها اليوم القائلون بالناصري وسقراط وجاهروا باسمها

امام الناس والناس لا يقدرون على قتلهم لكنهم يسخرون بهم قائلين : السخرية اقسى من القتل وامرّ .

ولم تقوَ اورشليم على قتل النـــاصري ، فهو حي الى الأبد ، ولا آثينا على اعدام سقراط ، فهو حي الى الأبد ، ولن تقوى السخرية عـــلى سامعي الانسانية وتابعي اقدام الالوهية ، فسيحيون الى الأبد ، الى الأبد .

- ٣ -

انت اخي وكلانا ابن روح واحد قدوس كلي . وانت مماثلي لأننا سجينا جسدين جبلا من طينة واحدة . وانت رفيقي على طريق الحياة ومسعفي في ادراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم . انت انسان وقد احببتك يا اخي .

قل عني ما شئت ، فالغد يقضي عليك ويكون قولك قرينة ظاهرة امام حكمه وبينة صائبة لدى عدله .

خذ مني ما شئت ، فلست بسالب غير مال لك الحق بقسم منه وعقار استأثرت به لمطامعي ، فأنت خليق ببعضه ان كان يرضيك بعضه .

افعل بي مـا تشاء ، فلست بقادر على مس حقيقتي . اهرق دمي واحرق جسدي فلن تؤلم نفسي ولن تميتهـا .

كبّل يديّ ورجليّ بالقيود وانزل بي الى ظلمة السجون ، فإنك لا تقوى على اسر فكرتي ، لأنها حرة كالنسيم السائر في فضاء لا حد له ولا مدى .

انت اخي وانا احبك .

احبك ساجداً في جامعك وراكعاً في هيكلك ومصلياً في كنيستك ، فأنت وانا ابنا دين واحد هو الروح ، وزعماء فروع هذا الدين اصابع ملتصقة في يد الالوهية المشيرة الى كمال النفس .

احبك لمحبة حقيقتك المنبثقة من العقل العام . تلك الحقيقة التي لا اراها الآن لعماوتي ، لكني اعتبرها مقدسة لأنها من اعمال النفس . تلك الحقيقة التي ستلتقي بحقيقتي في العالم الاتي فتمتزجان كأنفاس الأزهار وتصيران حقيقة واحدة كلية خالدة بخلود الحب والجمال .

احبك لأني رأيتك ضعيفاً امام الأقوياء القساة وفقيراً محتاجاً امام صروح الاغنياء الطامعين . لذلك بكيت من اجلك ، ومن وراء دموعي رأيتك بين ذراعي العدل وهو يبتسم لك ويستهزىء بمضطهديك ... انت اخي وانا احبك .

- ٤ -

أنت أخي وانا أحبك . لماذا اذن تخاصمني ؟

لماذا تأتي بلادي وتحاول اخضاعي ارضاء لائمة يطلبون المجد بقولك والمسرة بتتاعبك ؟ لماذا تترك رفيقتك وصغارك متبعاً الموت الى ارض بعيدة من اجل قواد يبتغون ابتياع المعالي بدمائك والشرف الرفيع بأحزان والدتك ؟ ولكن امن الشرف الرفيع ان يصرع الانسان اخاه ؟ لنرفعنّ اذن تمثالاً لقابين مترنمين بمديح حانان .

يقولون يا اخي ان المحافظة على الذات قاعدة طبيعية اولية ، ولكنني رايت الطامعين بالتميز يحببون اليك بذل الذات توصلاً الى امتلاك رقاب اخوانك . ويقولون ان حب البقاء يوجب الاعتداء على حقوق الغير ، وانا اقول ان المحافظة على حقوق الغير هي اشرف واجل مآتي الانسان ، واقول ايضاً : ان كان بقائي يوجب فناء سواي فالموت اذن الذّ لديّ واحب ، وان لم اجد من يقتلني شريفاً ومحبّاً منزهاً تمتعت بتقديم ذاتي بيدي الى الابدية قبل اوان الابدية.

الانانية يا اخي اوجدت التنافس الاعمى ، والتنافس ولد العصبية ، والعصبية وضعت السلطة وكانت هـــذه داعياً

للمنازعات والاستعباد . النفس تقول بسلطة الحكمة والعدالة على الجهالة والظلم ، ولكنها تنكر تلك السلطة التي تستل من المعـــادن قواضب وبواتر لتعميم الجهالة والمظالم . تلك السلطة التي هدمت بابل وقوضت أركان اورشليم ودكت مباني رومية . تلك التي اوجدت سفاكي الدماء والقتـــلة الذين ينعتهم الناس بالعظماء والكتّاب تجل اسماءهم ، والكتب لا تأبى حفظ معـاركهم في بطونها كما ان الارض لم تأب حملهم على ظهرها حينما كانوا يخضبون محياها بالدماء الزكية . . . فما اغراك يا اخي بما يغرك والهجك بمن يضرك ! السلطة الحقيقية هي الحكمة المحافظه على الشريعة الطبيعية العـامة العادلة . فأين عدالة السلطة إذا قتلت القـاتل وسجنت الناهب ثم زحفت بذاتها الى بلاد مجاورة وقتلت الالوف ونهبت الربوات ؟ ما قول العصبيين بقتلة يعاقبون من يقتل ولصوص تجازي من يسلب ؟

انت اخي وانا أحبك ، والمحبة هي العـــدل بأسمى ظواهره ، فإن لم اكن عادلاً بمحبتي لك في كل المواطن كنت مراوغاً ساتراً بشاعة الانانية بثوب المحبة البهي .

خاتمة

لي من نفسي صديق يعزيني إذا مـا اشتدت خطوب الأيام ويؤاسيني عندما تلمّ مصائب الحياة ، ومن لم يكن صديقاً لنفسه كان عدو الناس ، ومن لم يرَ مؤنساً من ذاته مات قانطاً لانّ الحياة تنبثق من داخل الإنسان ولن تجيء مما يحيط به .

جئت لاقول كلمة وسأقولها ، واذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولهـا الغد . فالغد لا يترك سرّاً مكنوناً في كتاب اللانهاية .

جئت لأحيا بمجـد المحبّة ونور الجمال ، وهاءنذا حي والناس لا يستطيعون إبعادي عن حياتي . ان سملوا عينيّ تمتعت بالإصغاء لاغاني المحبة وألحـان الجمال . وإن طمسوا أذنيّ تلذّذت بملامسة أثير ممزوج بأنفـاس المحبين وأريج الجمال . وان حجبوني عن الهواء عشت ونفسي ، فالنفس ابنة الحب والجمال .

جئت لاكون للكل وبالكل ، والذي أفعله اليوم في وحدتي يعلنه المسيقبل أمام الناس . والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة .

أخي الإنسان، هل تعلم ما الفرق بين الغلبة والحنان؟
والعطف والإحسان؟ وماذا ألقيت عليك هذه الآية
على سبيل العلامة الخيرية والرحمة الشاملة،
وأنها بالعطف لا تستطيع الفارق بين الأول والآخر.
إن الحنان هي تلك العاطفة التي تدفع الموالاة نحو
البشر والأشياء والأخرة كالحيوان والشجر
والنبات وما إلى غير ذلك.
إذا جئنا بالمعاناة المعروفة الحنان، والأشياء التي تتخللها
عند الأخير نقرب به هذا المثل الآتي: الرسول عند
ما أمته. إن هذا البشر، هذا الرجل الذي بعث إلى العروبة
لتكون حيث كانت وأهل الشرع الكلمة الإسلام المقدسة،
هنا لا تخيل بين حقيقة الحنان، ذلك اليوم الأسود
يوم استشهاد شهر الرسالة المقدسة، والكلمة الغالية
بالنفس والنفيس، إنه اليوم الطبيعي بين الرجل العابر،
المتحمل بشرائع الشريعة المقدسة والكتب السريعة،
منذ هنا يا إخواني تشتكي إذا ذاك ما أخذ الكلمة
المقدسة وهي الكل، لولا هاتان الشفتان الإسلام فبضعة
الكفار والفجار الماكرين. إن الرسول عندما يعبر
الرجل الرحيم، والبطل المجد، الذي اختاره البشر حنانه
غاية العظمة والمعجزية، إذن إذا كانت هذه الحنان
الوهاج مدهشة، فعلينا أن نفتح تلك الروح الطاهرة بالبكاء
ممتزجة بحنان، والعبرة ليس للعاطفة.

دَمعَة وَابتسَامَة

دمعة وابتسامة – توطئة ٥
حياة الحب ٧
حكاية ١٠
في مدينة الأموات ١٥
موت الشاعر حياته ١٨
بنات البحر ٢١
النفس ٢٤
ابتسامة ودمعة ٢٦
رؤيا ٢٩
الجمال ٣١
الحروف النارية ٣٣
بين الخرائب ٣٥
رؤيا ٣٧
الأمس واليوم ٤٠
رحماك يا نفس رحماك ٤٤
الأرملة وابنها ٤٦

الدهر والأمة ٤٩
أمام عرش الجمال ٥٢
زيارة الحكمة ٥٥
حكاية صديق ٥٨
بين الحقيقة والخيال ٦٢
يا خليلي الفقير ٦٤
مناحة في الحقل ٦٦
بين الكوخ والقصر ٦٨
طفلان ٧٠
شعراء المهجر ٧٢
تحت الشمس ٧٤
نظرة الى الآتي ٧٦
ملكة الخيال ٧٨
يا لائمي ٨١
مناجاة ٨٣
المجرم ٨٦
الرفيقة ٨٨
بيت السعادة ٩١
مدينة الماضي ٩٢
اللقاء ٩٤

مخبآت الصدور ٩٧
القوة العمياء ١٠٢
منيتان ١٠٥
على ملعب الدهر ١٠٨
خليلي ١١٠
حديث الحب ١١٣
الحيوان الأبكم ١١٦
السلم ١١٩
الشاعر ١٢١
يوم مولدي ١٢٣
الطفل يسوع والحب الطفل ١٣٠
مناجاة أرواح ١٣٥
أيتها الريح ١٤٠
رجوع الحبيب ١٤٤
جمال الموت ١٤٩
أغاني ١٥٣
أنشودة الزهرة ١٥٩
نشيد الانسان ١٦٠
صوت الشاعر ١٦٢
خاتمة ١٦٩

والنتيجة أن الأدب من أعلى عرش، بحيث أنه استرعى نظر
علماء غير العرب؟ وأما دراسة الحقيقة، فإن هذا لا يحتاج
من التعريف بي حتى أبدأ، وإذا أردنا أن نحكم على أسلوبنا
يا سيدي، لكي نبقى مكتبتنا جواد لغتنا الشعرية فإننا نقول:
إن الأدب هو تحكم على العاطفة الداخلية أكثر من التكلم بالأشياء
الأخرى، إذا قلنا الأدب، فإننا نقصد الإحساس الذي يتناول
في كل عناصر من عناصر الأدب كما أسلوبه غير أنا نعتبر العوامل
تحقيقنا بجملة إرادة وفي بحثنا الأول يقول العقلاء،
ورشان يكفر الشعوب البشرية ما عرف ليس له دار دد الجبل»
بعد أن ينكب العلماء والعلم من تلك الأبحاث المختلفة.
أما الحقيقة الأدب هي ناحية العاطفة أو الشعور بعد يتغلغل
إلى نفسية: أدب الشعور، وأدب الشعور بالعقل.
بأدب الشعور: نعني هو ذلك الذي يتوجه الأديب وخلقه وليه قبل
استعراضه إلى عالم الكائنات، ونعني بقولنا فنيا:
أدب الشعور وأدب الشعور.

يا حامل الحسام الأصل، واللغة الشريف العشرين،
تعالى ذي عوادي احملها من مرتع أماد الوجود وهي
في طريقها إلى عالم مجهول الأصل والعنوان.
استفاد مرت وأما لسعا الرشد فقد بارت الحياة الآن
إلى البلد في الشمال، ذو القوة العظيمة، والأعمال
الجبارة، فقد سلبها، وجرد هاتين حلتها الشعرية،
وروعتها البديعة، الشاطئ الرمال، فقلت يا أختاه
أن الشعر مازال شعر طبيعيا، والطبيعة من تلك
الوقائع، لأنها ما زالت متأثرة بحياة الأدب، على

تفتخر دار الأندلس للطباعة والنشر

بأن تقدم لأبناء العربية الطبعة الجديدة الفاخرة

لمؤلفات

جبران خليل جبران

١	البدائع والطرائف	٨	رمل وزبد
٢	العواصف	٩	النبي
٣	دمعة وابتسامة	١٠	المجنون
٤	الأجنحة المتكسرة	١١	كلمات
٥	الأرواح المتمردة	١٢	آلهة الارض
٦	عرائس المروج	١٣	السابق
٧	يسوع ابن الانسان	١٤	المواكب

قدم شتيح والأدباء في جمعية أرجعت
الجزيرة المكتوبة إلى الرابطة مناجمعة
وجب أن ذوقك الحمى مناجمعة أخرى.

Babeuf.

Sa naissance : à Tour (Haut ni la Somme)
1799 . 2 to Mai.
29. Avril 1836. mariage, à Versailles, de Lionel Richard
Lowell, fils puîné de Babeuf
sa fille s'appelle anna
Babeuf fut marié le 26 Janvier 1790 avec Mlle Honorine
d'église Sainte-Barbe.

دار الشمالي للطباعة حريصا ـ لبنان

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

NYU - BOBST
31142 01411 3438
PJ7826.I2 D3 1950x
Dam`¿ah wa